الفصل الأول

مسؤولية الجامعة والجامعيين في إصلاح التعليم "العلل والحلول"

في مقاربات إسماعيل راجي الفاروقي

عبد العزيز بوالشعير[1]

مقدمة:

يرى الفاروقي أنّ المسلمين هم أوّل من عرف الجامعة على أنها كيان مستقل قانونياً ومالياً، يحتوي على الطلاب والمدرّسين، في تكريس خالص، لمتابعة المعرفة، وهذا ما جعل المسلمين الأوائل يثبتون في مواجهتهم مع الفرس والروم، فلقد كان إيمانهم مطلقاً وثابتاً، وكانوا يرون أنهم جديرون بأن يسودوا العالم بأسره بهذا الدّين الجديد. لكن العالم الإسلامي في نظر كثير من الناس اليوم هو "الرجل المريض"، وأنّ الإسلام يقبع وراء كل ظواهر التخلّف. ولا شك في أنّ الداء هو في المسلمين أنفسهم، وأنّ العلاج ينبغي أن يأتي من داخل الأمة الإسلامية، وأن يبدأ من مؤسسات التعليم العالي التي تولّد الإبداع والابتكار، وتعمل على إيقاظ وعي المسلم، ومن ثم تقويم شخصيته وإصلاح سلوكه، فكل عمل جامعي لا يستهدف تحقيق هذه الأهداف، إنما هو إجراء شكلي ظاهري لا يتعدى الترقيع الذي لا يصل إلى لبّ القضية.

إنّ المسؤولية ملقاة على عاتق الجامعة التي ينبغي أن تقوم بعملية الإصلاح، إصلاح النظام التعليمي الذي انحرف عن مساره الصحيح، فأصبح

(١) دكتوراه في الفلسفة من جامعة منتوري في قسنطينة، أستاذ الفلسفة بجامعة سطيف٢، الجزائر البريد الإلكتروني:.bouch_abde01@yahoo.fr

التعليم الجامعي الحالي عاجزاً عن ترشيد الأمة وإدارة شؤونها فوقعت في الجمود والتقليد، وصارت أبعد ما تكون عن توليد المعرفة، وإنتاج الفكر الإسلامي الصحيح. من هنا قدّم الفاروقي تصوراً للجامعة، سمّاه "نحو جامعة إسلامية". يشير في تصوره إلى ضرورة أن تحقق الجامعة استقلالها المالي بأسرع ما يمكن.

ولكي تصل هذه الجامعة بطلاّبِها إلى توليد المعرفة، وإنتاج الفكر ينبغي أن تعمل على تحقيق مجموعة من الأهداف منها: تربية المسلمين، وتنمية قدراتهم العقلية، والانفعالية والثقافية اللاّزمة لتحمّل مسؤولية إصلاح التعليم عموماً، والتعليم الجامعي على وجه الخصوص. ولكي تتحقّق هذه الأهداف يقدّم الفاروقي جملة من الكلّيات التي ينبغي أن تكون دستوراً فكرياً للجامعة حتى تؤتي أكلها، فتفجّر الطاقات، وتنتج الكفاءات، وتُثمر المُبدعين في الوسط الجامعي والاجتماعي للأمة، منها: دراسة تراث العلم البشري والمقدّس، وإدراك صلة الإسلام بالواقع الحالي، وإبراز رؤيته لقضايا الوجود والمعرفة والقيم، انتهاء بتربية الإنسان، وتأهيله لأداء دوره الرّسالي في الحياة، وبذلك يمكن تجاوز القصور المعرفي، والمنهجي، والإجرائي لجملة مشاريع الإصلاح في العالم الإسلامي، وهذه الكليات من شأنها إصلاح الفكر الإسلامي، وإنتاجه من حيث منهجيته، ومحتواه، ورسالته التاريخية.

والإشكالية المحورية التي تحاول هذه الدراسة معالجتها هي مسؤولية الجامعة والجامعيين في إصلاح التعليم في العالم الإسلامي، ويتفرّع عنها ضرورة بناء إطار نظري لعملية إصلاح التعليم، ووصف واقع التعليم في العالم الإسلامي، وبيان دور الجامعيين في هذا الإصلاح، وتحديد الآليات المعتمدة فيه، وعلاقة هذا الإصلاح بالنهوض الحضاري للأمة، ورؤية الفاروقي للقيام بهذا الإصلاح من خلال العمل المؤسّسي.

وتكتسي هذه الدراسة أهمية بالغة، كونها تثير مسألة إصلاح نظام التعليم العام والجامعي، بوصفه مدخلاً منهجياً، ومعرفياً، وإجرائياً لعملية الإصلاح في العالم الإسلامي. ثم إن عملية الإصلاح تستهدف النخب المثقّفة وتتم بوساطتها، ولهذا فلا حديث عن الإصلاح الفكري والجامعي دون إصلاح نظام التعليم. كما يعمد البحث إلى تصحيح رؤية كثير من القائمين على شؤون التعليم في العالم الإسلامي الذين يفصلون بين التعليم الديني والتعليم الدنيوي. وهو وضعٌ حاول الفاروقي من خلال كتاباته التنبيه إلى خطورة هذا الفصل، وهذه الازدواجية في الجامعات، والمؤسسات التعليمية في أطوارها المختلفة.

واعتمدت الدراسة المنهج التحليلي الذي يقوم على تحليل المفاهيم والمشكلات المتعلّقة بموضوع الدراسة، وإجراء بعض المقاربات والمقارنات بين آراء الفاروقي، وآراء مفكرين آخرين يتقاطعون معه في الرؤية والمنهج، وآخرين يختلفون عنه، إغناءً لموضوع إصلاح التعليم في العالم الإسلامي.

أولاً: الإطار النظري لعملية إصلاح التعليم الجامعي

يعتمد إسماعيل راجي الفاروقي المنهج الظاهراتي phénoménologie في دراسته لحال الأمة الإسلامية التي تعاني التخلّف، والانحطاط منذ قرون، رغم محاولات الإصلاح والتجديد التي ظهرت هنا وهناك في العالم العربي والإسلامي. والطريقة الظاهراتية تتطلب من المراقب أو الدارس أن يترك الظّاهرة تتحدّث عن نفسها دون أن يُقحمها في إطار فكري مقرّر سلفاً، كما يدَع صورة الجوهر الذهنية تنسّق المعلومات أمام الفهم فتعزّز مصداقيتها بها. فالباحث يمارس "التوقّف" الذي تتطلّبه الظاهراتية، وهو مبدأ يفرض تعطيل جميع ما سبق من مفاهيم وأحكام وميول في تفسير المعطيات في ديانة أو ثقافة أخرى وفي استخلاص معانيها."[1]

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي، والفاروقي، لويس لمياء. **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، مراجعة: رياض نور الله، الرياض: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٢٥، ٢٦.

يطبّق الفاروقي المنهج الظّاهراتي عندما يتحدّث عن الخلل الذي أصاب التعليم في العالم الإسلامي فجعله معتلاً، اعتلال الجامعة والجامعيين، وعجزهم عن أداء دورهم في عملية الإصلاح الفكري والتربوي والحضاري، الذي يخرج الأمة الإسلامية من وهدة التخلّف، وينقلها إلى حالة من الفعّالية والرّسالية، ويمكّنُها من أن تتّصف بالخيرية التي وصفها بها القرآن الكريم. وهو هنا يمثّل العالم الذي أحسّ بأزمة معينة أو خلل في الأداء ونقص في الفاعلية والإنجاز، وبذلك فأوّل شيء قام به بوصفه خبيراً هو تشخيص القيم السائدة، والنظم التربوية التعليمية القائمة.(١)

ولذلك ينطلق الفاروقي في توصيف حال الأمة الإسلامية بقوله: "... هي بواقعها في عالم اليوم، في وضع تعيس لا تحسد عليه، بالمقارنة بغيرها من الأمم. ومن المفارقات الغريبة أنّ هذه الأمة تجمع بين كونها الأمة الأكبر عدداً من حيث المنتسبين إليها، والأكثر من حيث العُدّة المادية، لكونها أغنى الأمم في الأراضي والموارد، وفي الثروة الفكرية من مدخلي حيازتها أعظم تراث، مما يجعلها هي الأقدر بين نظيراتها على الحياة."(٢) و"العالم الإسلامي اليوم في نظر الناس هو"الرجل المريض"، والعالَم يراد له أن يقتنع بأنّ دين الإسلام يقبع وراء كل تلك الشرور. ومما يجعل هذه الهزيمة وهذا الإذلال وهذا التشويه الذي يلحق بالإسلام والمسلمين لا يحتمل حقاً، هو أنّ تعداد هذه الأمة الإسلامية يفوق الألف مليون، وأنها تملك أوسع الأراضي، وأغناها وأنّ مواردها الكامنة سواء كانت بشرية أو مادية أو استراتيجية تفوق سواها وأنّ عقيدتها (الإسلام) دين متكامل صالح إيجابي وواقعي."(٣)

(١) الكيلاني، ماجد عرسان. **التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند مجلة المسلم المعاصر**، بيروت: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٤.

(٢) الفاروقي، إسماعيل راجي. **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، ترجمة: السيد عمر، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، (نسخة إلكترونية)، متوفر على:
www. shared. com/document/btqVrhvS/___. htm

(٣) الفاروقي، إسماعيل راجي. **أسلمة المعرفة**، ترجمة: فؤاد حمودة، عبد الوارث سعيد، **مجلة المسلم المعاصر**، الكويت، عدد٨، أكتوبر ١٩٨٢م، ص١٠.

ورغم أنّ الأمة الإسلامية هي أمة الوسط الشاهدة على غيرها من الأمم كما وصفها الله تعالى في محكم تنزيله، بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، إلا أنّ واقعها يوحي بعكس ذلك، فهي لم تعد أمة الرّسالة والخيرية والوسط كما أراد الله تعالى لها، بل غدَت أمة يتكالب عليها كل مَن هبّ ودبّ من الأمم، تكالب الأكلة على القصعة، وباتت أمة متواضعة الإسهام في عصرنا هذا.

ثمّ إن هذا الوضع الذي تعيشه الأمة ليس قدراً محتوماً كما قد يعتقد بعضهم، بل إنّ سنن الله تعالى في المجتمع والتاريخ تُقرّ بالسّنة الإلهية الثابتة التي لا تعرف التبديل ولا التغيير، والتي تكاد تُمثّل القانون الحاكم لتاريخ الإنسان على الأرض، الوارد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]. وتطبيق هذه السّنة الكونية الربانية على الأمة الإسلامية، هو مفتاح تفسير استمرار عِلّتها، وباب معرفة السّر في فشل كل محاولات الإصلاح التي جربتها حتى الآن، في مقابل التجارب الناجحة نسبياً لرواد الحركة الإصلاحية الأولى الذين عالجوا إشكالية تدهور مكانة الأمة بالتنقيب في عمق نفسها، وتلمّسوا حلولاً أكثر جذرية للدّاء، واستحضروا الوسطية صفة أساسية لها. وذلك عندما جعلوا الدّين سنداً لهم ومنطلقاً لإصلاحهم، فهم يؤمنون بأنّ الدّين له دور حيوي في عملية الإصلاح والتغيير،"وهو يحقق عمله الاجتماعي، بطريقة غير مباشرة، أو غير أساسية، حين يهدف إلى غاياته الخاصة: فالدّين حين يخلُقُ الشبكة الروحية التي تربط المجتمع نفسه بالإيمان بالله، وهو يخلُق بعمله هذا شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع لأن يضطلع بمهمته الأرضية، وأن يؤدّي نشاطه المشترك، وهو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض."[1]

ورغم مساعي الإصلاح التي ظهرت في العالم العربي والإسلامي الساعية إلى بناء صرح الأمة، ورغم اختلاف الأساس الذي استندت إليه في عملية

(١) ابن نبي، مالك. **ميلاد مجتمع**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ط٣، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٧٩.

الإصلاح، إلا أنّ معظم هذه المساعي باءت بالفشل؛ لأنها انصبّت على المتطلبات المادية للأمة، وتغافلت عن احتياجاتها الروحية مع أنها هي الأهم. وكانت النتيجة أن تلك الحركات زادت المجتمع الإسلامي خبالا، بانطلاقها من مداخل غير صحيحة، لا تعبّر عن عمق الأمة وجوهر حضارتها.

ويرجع الفاروقي فشل معظم حركات الإصلاح في العالم الإسلامي إلى افتقارها جميعاً للبصيرة في تحديد علة المأزق الراهن الذي يعاني منه المسلم، "فصحة المجتمعات ومرضها أساسهما صحة الفكر أو مرضه"[1] هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فهذه الحركات أخفقت أو عجزت عن بلورة رؤية كلية كونية عن الإسلام، تُبرز علاقته بكل لحظة من حياة البشر، وبكل أطياف النشاط الإنساني المعاصر، وبيان صلاحيتها بوصفه أساساً لوجود الإنسان في عصره. ثم إنها لم ترقَ إلى المستوى الذي بلغته حركة الإصلاح الأولى على صعيد تنقية الرؤية الكلية الإسلامية الأساسية من ركامات الجهل والخرافة، بل تجاوزت ذلك إلى محاكاة الغرب في الاستهانة بالدّين، والدعوة إلى تجاوزه.[2] بمعنى آخر؛ إنّ هذه الحركات لم تفهم دور الدّين في حياة الإنسان، ومن ثمّ استبعدت من حساباتها فكرة الاعتماد على مبدأ الوحي الإلهي للرسل مصدراً للهداية. لذلك وصل الإنسان إلى حالة من الفوضى والعشوائية الفكرية في أحكامه إلى درجة لم يعد معها، تبيُّن حقيقة وجوده ومنتهى مصيره، أمراً ممكنا. بل وصل به الأمر إلى أنه سعى لأن يورد نفسه بنفسه مورد التهلكة نتيجة طبيعية لعدم تحقيقه للغاية من خلقه.[3]

كما غفل بعض رواد حركات الإصلاح والتغيير عن حقيقة جوهرية مفادها أنّ الدّين هو أهمّ مكوّن من مكونات إنسانية الإنسان. وذلك للأسباب الآتية:

(١) الكيلاني، ماجدعرسان. **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، دبي: دار القلم للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٣٧٤.

(٢) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٢٨، ٣٠.

(٣) إسماعيل، محمد الحسيني. **الدين والعلم وقصور الفكر البشري**، القاهرة: أميرة للطباعة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص١٤٨-١٤٩.

- الدّين يتضمّن رؤية للواقع وتمفصل أو ارتباط هذه الرّؤية، فهذه الرّؤية وتعابيرها ألّفت معظم النتاجات الفكرية الإنسانية عبر التاريخ.
- الالتزامات الدّينية تهدف إلى تحقيق الخير الأسمى.
- محتوى الدّين هو المنظار الذي من خلاله تتحدّد مفاهيمنا وأفكارنا، فهو أهم مكوّن من مكونات الثقافة وروحها.
- الدّين هو المحرّك للإنجازات الحضارية التي تتجلّي في شكل إنجازات ملموسة. والنتيجة هي أنّ الدّين موجود في قلب كل ثقافة وحضارة بوصفه عاملاً مركزياً رئيساً.(١)

وربما راهنت حركات الإصلاح والتغيير على حقن الأمة بشحنات من الحماس والخطب، ومزيد من التوثّب الروحي، والتّذكير بالأمجاد المشرقة للواقع التاريخي، معتقدة بأنّ هذا كفيل بانطلاق الأمة نحو حياة إسلامية راغدة، وحضارة إسلامية جديدة، ووحدة إسلامية شاملة، دون بناء عالم فكري، ومفاهيمي، ومعرفي، وثقافي صحيح، يوجّه حركة الأمة، ويرسي قواعد سيرها ونهجها.(٢) ما جعل حماسها يفتر حيناً ويقوى حيناً آخر، في حين كان عليها أن تراهن على بناء الإنسان فكرياً، ومفاهيمياً، ومنهجياً، وسلوكياً، وإنجازياً، بما يضمن للأمة التقدّم نحو الأمام، حتى تبرح مكانها وتتجاوز وضعها الذي ظلت تراوح فيه.

والحق، أنّ حركات الإصلاح في العالم الإسلامي لن تصل إلى مرادها إلاّ إذا عادت إلى جذورها الأولى؛ الجذور التي تمثّل الشروط التاريخية، والنفسية، والاجتماعية التي وُجدت في ظلّها، و"لن تقوم لها قائمة، ولن تستعيد وصف

(1) International Institute of Islamic Thought.:*Toward Islamization of Disciplines*: Islamization of Knowledge series n:6, Papers presented at the International Conference in Islamization of Knowledge, Herndon, Virginia, USA: IIIT, p. 409–410.

(٢) العلواني، طه جابر. **إصلاح الفكر الإسلامي "مدخل إلى نظم خطاب الفكر الإسلامي المعاصر"**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٢٢.

الأمة الوسط، إلاّ بالإسلام. فقد كان هو مسوّغ وجودها ذاته، منذ ما يربو على أربعة عشر قرناً، وبه تحدّدت معالم شخصيتها، وبه صُنع مصيرها عبر العصور. وحدها رؤية المسلم نفسه خليفة في الأرض بأمر الله تعالى، هي التي تصنع منه محرّكاً لعجلة التاريخ الإنساني."[1] فما صرح الحضارة الإسلامية بجملته إلاّ نتيجة لإنشاء الإسلام ذاته، الذي يحمل تصوراً معيناً للحياة الدنيا، ويضع الإنسان في المنزلة التي يستحقّها في هذه الدنيا، ويحدّد له علاقته بهذه الدنيا، كما يضبط له غايته في الحياة.

وعليه، فالسّير وفق رؤية الإسلام، والالتزام الصحيح بها هو الشرط الأساس لقدرة الإنسان على التصرّف على نحو مسؤول مع مجمل مكونات الزمان والمكان. ويتدخّل الإنسان المسلم بوصفه خليفة بأمر الله تعالى في الأرض، بوصفه حقاً له، وواجباً عليه، في المعطيات الزمانية والمكانية المادية، والنفسية، والاجتماعية، والروحية المحكومة بسنن كونية، تعيد توجيه مساره على نحو يحقّق النموذج الإلهي لما ينبغي أن تكون عليه حياة الإنسان على هذه الأرض. ثمّ إن عملية إعادة البناء لا تهدف إلى إشباع إرادة الإنسان الخلاّقة، بل إلى الاستجابة لإرادة الله تعالى في الكون، ومنه تصير عملية إعادة البناء عبادة لله وطاعة له، وليست عملية غزو للطبيعة، ولا قهر لها، كما هو واقع في المنظومة الغربية. إن عملية إعادة البناء تقوم بالأساس على رؤية الإسلام للوجود، وعلى الإصلاح الحقيقي للنفس.[2] فإذا أخذنا مثلاً الحركة الوهابية منطلقاً لحركة تجديد الأمة، التي يكون قد مضى على تجربتها ما يقرب من قرنين ونصف، وإذا استحضرنا تجارب مجتمعات أقل منا شأناً من حيث: تجربتها التاريخية، ومرجعيتها الفكرية، وإمكاناتها الحضارية البشرية والمادية، والاستراتيجية، أدركنا الهوة الفاصلة بين التجربتين؛ بدليل أنّ هذه التجارب التي انطلقت معنا،

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠.

أو جاءت بعدنا، تمكّنت من اختصار الزمن، وبناء قدراتها الذاتية، والبروز على مسرح الأحداث قوة فاعلة يحسب لها حسابها في المعترك الحضاري.[١]

ركّزت الحركة الوهّابية على فكرة التوحيد، وتنزيه العبادة مما لحق بها من تحريفات وتشويهات أفسدت عقيدة المسلمين، ومن ثمّ فإنه لكي يتحقق الإصلاح، يجب أن يبدأ خطواته الأولى من (الفرد)، ولقد وُجد أساس هذه الفكرة في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. "بيد أنّ أوّل شيء في هذه الطريق هو تكوين نظام الانعكاسات الذي يغيّر سلوك الفرد، وهذا التغيير النفسي هو الذي يستهل حياة المجتمع، وهو أيضا الشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي. وهكذا نرى أنّ كل ما يغيّر النفس، يغيّر المجتمع، ومن المعلوم أن أعظم التغييرات وأعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينية."[٢] فكثير من الفلاسفة اتّحدت وجهة نظرهم في بيان الدّور الحيوي الذي تلعبه العقيدة الدينية في أيّة حضارة من الحضارات.[٣] ففي آية التغيير الواردة في سورة الرعد نجد أنّ نفس الفرد هي العنصر الجوهري في كل مشكلة اجتماعية، فكيف نغيّر هذه النفس؟ تغيير النفس معناه إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف، وليس هذا من شأن علم الكلام، بل هو من شأن منهاج التصوف، أو بعبارة أدق، هو من شأن علم لم يوضع له اسم بعد، ويمكن أن نسميه تجديد الصلة بالله.[٤] لذلك تأتي أهمية التركّيز على ضرورة تغيير النفس البشرية، فـ"الحركة الإصلاحية لم تستطع تغيير النفس الإنسانية، بل لم تستطع أن تترجم إلى لغة الواقع فكرة الوظيفة الاجتماعية للدّين. فإذا ما أريد

---

(١) ابن نبي، مالك. **آفاق جزائرية**، ترجمة: الطيب الشريف، الجزائر: دار النهضة الجزائرية، ١٩٦٣م، ص٦٥.

(٢) ابن نبي، **ميلاد مجتمع**، مرجع سابق، ص٧٩، ٨٠.

(٣) كوخ، أدريين. **آراء فلسفية في أزمة العصر**، ترجمة: محمود محمود، القاهرة-نيويورك: مكتبة الأنجلو المصرية، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م، ص٧.

(٤) ابن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ٥٢، ٥٣.

للنهضة أن تبرُز إلى عالم الوجود علينا أن نواجه مشكلة الثقافة في أصولها."[1] فكل محاولة لإعادة بناء حضارة الإسلام، يجب أن تقوم أوّلاً، وقبل كل شيء على أساس سيادة الفقه الخالص على الواقع السائد، الذي نشأ عن صفين، ولا شك في أنّ هذا يقتضي رجوع المسلمين إلى الإسلام الخالص، وتمكينهم من تحديث معطيات الرؤى الفكرية المبكرة التي قدّمها رواد الحركة السلفية، التي تؤكّد على محورية التوحيد ركيزةً ينبغي تأسيس أي برنامج إصلاحي، في أي مجال كان عليها. فالتوحيد هو جوهر الإسلام ونواته، ولا نجاح يرتجى لأي حركة إصلاحية لا تنطلق منه.[2]

وتجدر الإشارة إلى أنّ عملية الإصلاح لا بدّ أن تبدأ بإصلاح مناهج التعليم وطرق التربية بوصفهما أحد أهم أركان الإصلاح التي يقوم عليها بناء الأمة ونهضتها. فالتربية والتعليم هما أساس البناء، ولكن أي بناء؟ فـ"حين تخفق جميع محاولات الإصلاح، وتتحول الجهود المبذولة إلى سلسلة من الإحباطات والانتكاسات المتلاحقة، فإن المطلوب هو القيام بمراجعة تربوية شاملة جريئة وصريحة وفاعلة، وإعادة النظر في كل الموروثات التربوية؛ ابتداءً من فلسفة التربية، ومروراً بأهدافها، ومناهجها وطرائقها، ومؤسساتها، وإداراتها، والمربين العاملين فيها حتى الانتهاء إلى تطبيقاتها السياسية والاجتماعية."[3] إنه بناء جوهر الإنسان، وتمكينه من أداء دوره الرسالي الحضاري فردياً واجتماعياً، وذلك عن طريق مَدِّه بالرؤية الكونية الحضارية، فيمتلك حينها منهجاً سليماً، ومعرفة صحيحة، وفكراً مستنيراً، وعلماً قويماً، وهذا يجعله إنساناً ذا نفسية فعّالة ذات حضور إيجابي في الواقع والتاريخ. والذي يتولّى القيام بهذه المهمّة هو الجامعة، التي تسعى إلى بناء الإنسان بناءً عقلياً ووجدانياً وسلوكياً وحضارياً، لينتهي به المطاف إلى القدرة على إصلاح واقع أمته أفراداً ومؤسسات. ويمكّنه التعليم

(١) المرجع السابق، ص٦٢.

(٢) الفاورقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٣٠، ٣١.

(٣) الكيلاني، **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، مرجع سابق، ص٣٧٧.

الجامعي كذلك، من القدرة على حل الإشكالات، وتحقيق الغايات، ومن ثمّ يحقّق الإصلاح والتقدّم المنشود المتناغم مع الهدي المنضبط بالوحي المتجّه صوب الرّسالية والإعمار.[1]

ثانياً: واقع التعليم الجامعي في العالم الإسلامي

لعل السؤال المحوري الذي نطرحه هنا هو ما طرحه المفكّر المعاصر "عبد الحميد أبو سليمان" قائلاً: "ما هو موضع التعليم العالي من مشروع الإصلاح الحضاري الإسلامي؟ وكيف نفعّله، ليؤدي الأدوار المنوطة به لتصحيح الرؤية واستعادة الدافعية في نشر العلم والثقافة، وتوليد المعارف، وإعداد الكوادر اللازمة لحاجات الأمة ومواكبتها؟"[2]

في هذا السياق، قام "إسماعيل الفاروقي" بتشخيص الحالة الراهنة للتعليم في العالم الإسلامي قبل أن يطرح الحلول والمقترحات، لتجاوز هذا الواقع المريض ضمن سياق مشروعه الفكري. فالمسلمون برأيه يعيشون في هذا العصر أزمات عديدة متشابكة تُذهِل صعوبتُها كلَّ من ينظر إليها بقصد حلّها. فالمجابهة العسكرية مع إسرائيل مع من يدعمها من الشرق والغرب تستنزف طاقة إسلامية كبرى. ثم تؤدي انقسامات الدول الإسلامية على نفسها في الداخل ونزاعاتها مع بعضها بعضاً إلى استنفاد طاقات أخرى. ثم إنّ الثروات الطبيعية في الوطن الإسلامي الكبير تسيطر عليها القوى الأجنبية، فتضيع مقدرات المسلمين الاقتصادية هباءً، فهم في كل بقعة من بقاعهم يستهلكون ما لا ينتجون. وإذا صنّعوا بلادهم، حجزوا الصناعة ضمن حدودهم بدل أن يفتحوا الأبواب على مصراعيها، لتنَقُّل الأموال والأيدي العاملة، واتساع الأسواق الضرورية لقيام الصناعة. وكذلك لهّوا أنفسهم عن الصناعات اللازمة البناءة للاقتصاد بالصناعات التجميلية، أو تلك

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٥٧-٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص٦٧-٦٨.

التي تعتمد على عناصر مكونة يستوردونها من الشرق والغرب، مما يخضع مصير صناعتهم لرحمة غيرهم.[1]

إنّ لنا جامعات كثيرة، ولنا آلاف من العلماء، والأساتذة، والأطباء، وما لا عدّ له من الأدباء، ومع ذلك: أين نحن مما يجب أن نكون عليه؟ فنحن فإما أننا غير واعين، لا نحسن التفكير في أوضاعنا واستخلاص العِبر مما كنا فيه، وما نحن عليه، ولا نقدر على مقارنة أحوالنا بأحوال أمم أخرى، شرقاً وغرباً، وإما أنّ الأشغال الفردانية قد ألهت المفكرين عن واجباتهم. ونسُوا أنّ الإصلاح الجيد ينبني على علم وعلى تفكير سديد ينطلق من قيم تنصبّ على الأعمال، لا على الأماني.[2]

والأمة الإسلامية اليوم تقف في مؤخرة الأمم، فليس هناك أمة قد تعرّضت في هذا القرن لمثل ما تعرّضت له الأمة الإسلامية من هزائم أو من إذلال. لقد هُزم المسلمون وقُتّلوا وسُلبت منهم أوطانهم وثرواتهم، بل وأرواحهم وأمالهم. لقد استُعمروا واستُغلوا وخُدعوا وحُوّلوا عن دينهم إلى أديان أخرى بالقوة أحيانا وبالرشوة وبالخدعة أحيانا أخرى. ولقد قام أعداؤهم مستعينين بعملائهم في الداخل والخارج، بصرفهم عن إسلامهم، كي يتحوّلوا إلى علمانيين أو إلى عبيد للغرب. كما أنهم كانوا ضحايا الظلم والعدوان في كل ناحية، وكانوا أيضا عرضة، لتشويه سمعتهم، وتلويث سيرتهم أمام الأمم.

كما أنّ العالم الإسلامي في نظر الغربيين ليس إلاّ مكاناً للصراع الداخلي، والانقسامات، والاضطرابات، والتناقضات، وهو عندهم مصدر تهديد للسلام العالمي، ومكان يجمع بين الثراء الفاحش والفقر المدقع، وبين المجاعات

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي. "حساب مع الجامعيين"، **مجلة المسلم المعاصر**، القاهرة، عدد٣١، رجب- شعبان- رمضان١٤٠٢هـ/ماي- جوان- جويلية ١٩٨٢م، ص٤٧.

(٢) الحبابي، محمد عزيز. **دور المفكر اليوم وعلى مر العصور في أمته وتجاه الإنسانية في كل من قضايا الساعة وآفاق المستقبل**، محاضرات ومناقشات الملتقى الثامن للفكر الإسلامي، بجاية، الجزائر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، مج١، ص٣٣٨-٣٤١.

والأوبئة.[1] وما يحياه المسلمون اليوم من مذلّة وهوان، وتخلّف وضياع، هو في الواقع نتيجة هذا الفهم السقيم، والحيدة عن القراءة الرشيدة لكتاب الوحي، وكتاب الكون وفق منهج الإسلام الصحيح، فغدوا: كالعير في البيداء يقتلها الظمأ. والماء فوق ظهورها محمول.[2]

لقد بدا واضحاً أنَّ علَّة الأمة هو في اعتلال فكرها، وفي منهجية تفكير أبنائها، وما ترتّب عن ذلك من اعتلال نظام التعليم السائد فيها، مما شكّل تربة خصبة للداء، ففي المدارس والكليات يلقّن ويكرس الاغتراب، والابتعاد عن الإسلام وتراثه ونمطه في الحياة، بحيث صار نظام التعليم الحالي هو المختبر الذي تصاغ فيه تركيبة الشباب المسلم، ويجري تغذية وعيهم على أسس غربية باطلة.[3]

ولعلّ حال الأمة اليوم يعود إلى عدم استعداد أبنائها لساحة الصراع الحضاري، وهم اليوم يقفون على عتبات هذه الساحة غير مستعدّين، ليس لهذا فحسب، بل هم خائفون وغير واثقين من أنفسهم، مختلفين كل الاختلاف عن أسلافهم الأوائل. لقد ظن المسلمون أنّ متطلّبات دخولهم هذا العالم الجديد هي تقليد الغرب وحذو حذوه، وجلسوا على عتبات أسيادهم في الغرب يأخذون عنهم ويتتلمذون على أيديهم. إنّ حال الأمة في أنحائها كافة يدعو إلى التساؤل: "... لماذا ينبغي على المسلمين أن يكونوا أتباعا للغرب في التعليم، وفي تطبيق ما يتعلّمونه على مشاكل الحياة؟ لماذا كُتب على المسلمين أن يكونوا أدنى من زملائهم الغربيين؟ هل منح الله الذكاء لهؤلاء وحرمنا نحن المسلمين منه؟ أم أنّ العلم والمعرفة وقف على غير المسلمين؟"[4]

(١) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص٩.

(٢) باجو، مصطفى. "نحو رؤية سليمة للمذاهب الإسلامية في المناهج الجامعية"، **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، قسنطينة، الجزائر، عدد١٧، رمضان ١٤٢٥هـ/نوفمبر ٢٠٠٤م، ص١١٢.

(٣) الفاروقي، إسماعيل راجي. **إسلامية المعرفة "المبادئ العامة – خطة العمل – الإنجازات"**، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص٤٧.

(٤) الفاروقي، **الإسلام والمدنية "قضية العلم"**، مرجع سابق، ص٦.

فعلى صعيد إسلامية التعليم ومناهجه نجد المدارس والكليات والجامعات التقليدية منها والعلمانية أجرأ من أي وقت مضى في الدعوة إلى آرائها وأفكارها غير الإسلامية، "فقد اتخذ نظام التعليم العلماني اللاديني منذ إنشائه على يد الإدارة الاستعمارية مواقع حسّاسة، وأبعاداً مهمّة على حساب النظام الإسلامي وإزاحته من الميدان. إنّ المخطط العلماني اللاديني شجّع على إبقاء الجامعات بعيداً عن الواقع وعن التحديث حتى لا يشكّل خريجوها أيّ تحدّ فعلي للمؤسّسات العلمانية اللاّدينية. وكان من نتائج هذا التوجّه إبعاد الطلبة والأساتذة عن جذورهم وحضارتهم الإسلامية، ويعدّ هذا الواقع أسوأ مما كان عليه في عهد الاستعمار."[١]

والنتيجة، هي أنّ العالم الإسلامي يتجّه في الوقت الحاضر نحو مرحلة حرجة من مراحل تاريخه، فهو يواجه المدنية الغربية بكل ما فيها من زيغ وانحراف، وبكل ما فيها من تجرّد من الإنسانية وتنكُّر لها. تلك المدنية التي فرضت نفسها على أرجاء العالم تقريباً وتحاول جاهدة أن تفرض نفسها على العالم الإسلامي. ولقد حاولت ذلك في فترة الاستعمار المكشوف بالقوة السّافرة، أما في فترة ما بعد الاستعمار المباشر، فهي تحاول ذلك بأساليب أكثر دهاء وخبثا.[٢] "فبعض جامعات العالم الإسلامي أصبحت مجالاً لتكريس الأخطاء، واستنساخ الانحراف الفكري في عديد من الأحيان، وإن لبست لَبوس العصرنة، في شكلها الخارجي، من وضع البرامج، وطبع الكتب، وتسمية المكوّنين بألقاب الرتب العلمية الحديثة، فالواقع المعاصر لهذا النوع من المعاهد والجامعات الإسلامية لا يدعو للتفاؤل، وهذا للخلل الحاصل في مناهجها ومقرراتها، أو في أساتذتها ومؤطّريها، أو في طلبتها وباحثيها."[٣]

---

(١) الفاروقي، **إسلامية المعرفة**، مرجع سابق، ص٤٧-٤٨.

(٢) الفاروقي، إسماعيل راجي. "الإسلام في القرن المقبل"، ترجمة: صلاح الدين حفني، **مجلة المسلم المعاصر**، القاهرة، عدد٣٨، ربيع الثاني- جمادى الأولى- جمادى الآخرة، ١٤٠٤هـ/فبراير مارس أفريل١٩٨٤م، ص٥.

(٣) باجو، **نحو رؤية سليمة للمذاهب الإسلامية في المناهج الجامعية**، مرجع سابق، ص١١٥.

ولما كانت الجامعة هي القلب النابض للأمة، وهي المسؤولة عن حالها ووضعها الذي لا تحسد عليه، فهي بدورها تعيش أزمة حقيقية؛ إذ إنّ التعليم في العالم الإسلامي في أسوأ حالاته، على الرغم من التوسع الهائل الذي تم فيه حتى الآن. فالطلاّب في هذه الجامعات يعيشون شرخاً كبيراً بين الهويّة الحضارية والانتماء إلى الأمة من جهة، ومسايرة الركب العلمي الذي عليه الجامعات في الغرب، من جهة أخرى. والطالب الجامعي حاله من حال جامعته، فهو يواجه في جميع تخصّصاته الجامعية نظريات مستوردة، وأفكاراً تهدّد هويته الحضارية، وشخصيته القاعدية الفطرية. والحق أنّ الوضع الآن أسوأ مما كان عليه أيام الاستعمار.[١] "فالمؤسسات العلمانية بمدارسها، وكلياتها، وجامعاتها لم تكن في يوم من الأيام أشد جرأة مما هي عليه الآن في الدعوة إلى مبادئها اللادينية."[٢]

فالناظر في واقع الجامعات في العالم الإسلامي اليوم يجد بلا شك أنها وُلدت في محيط فكري مليء بالمتناقضات، يغلب عليه السلبية والانبهار بالحضارة الغربية الغازية، رغم تبنيّ بعض روّادها لقناعات علمية وإيديولوجية حريصة على استرجاع مجد المسلمين، وتحقيق الشهود الحضاري للأمة، باسترجاع علوم الإسلام مكانتها ودورها الريادي في المجتمعات الإسلامية. غير أنَّ الطّموح الذي وُجد كان أكبر من حجم الطاقات المتوفرة، فلم تواكبه باستمرار كفاءات علمية مقتدرة، تترجمه إلى بناء علمي متناسق البناء، قائم على التصوّر السّليم، والتخطيط الدّقيق، والسّير الواعي نحو الهدف المنشود، وتسخير طاقات العقل المسلم المستنير لتصحيح أخطاء الفهم والقراءة، لكتاب الوحي، ولكتاب الكون على حد سواء.[٣]

---

(١) حسين، عقيلة. "ضرورة التكامل المعرفي في التحصيل العلمي والتحصين الحضاري (مقاربة تأصيلية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها)"، مؤتمر التكامل المعرفي ودوره في تمكين التعليم الجامعي من الإسهام في جهود النهوض الحضاري في العالم الإسلامي، الجزائر، أفريل ٢٠١٠م، ص٤٠١- ٤٠٢.

(٢) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص١٠.

(٣) باجو، **نحو رؤية سليمة للمذاهب الإسلامية في المناهج الجامعية**، مرجع سابق، ص١١٥.

ولعلّ من أهم أسباب فشل التشخيص وفشل العلاج لأزمة الأمة في القرون المتأخرة أنه انصرف إلى الأعراض وهدَف إلى الظواهر، فضلاً عما أصاب رؤيته الحضارية من تشوّه؛ إذ قصّر به منهجه الجزئي عن الغوص إلى جواهر الأسباب. فلا يمكن تحقيق نهضة الأمة، وحمل رسالتها دون تحقيق مختلف الإصلاحات المطروحة على الساحة، ولا سيما مطلب إصلاح التعليم، فنحن نرى أنّ جلّ هذه الإصلاحات، إنما هي تتعامل مع أعراض لأسباب أكثر عمقاً وأبعد غوراً لا يمكن النفاذ إليها إلا بالنظرة النّاقدة الشجاعة، وإلا بالتزوّد بالوسائل المعرفية الصحيحة اللاّزمة لمعرفة هذه الأسباب.(١)

من هنا يرى الفاروقي أنه "ليس هناك شك في أنّ الدّاء هو في المسلمين أنفسهم، وأنّ العلاج ينبغي أن يأتي من داخل الأمة الإسلامية، ولذا فكل إجراء لا يستهدف إيقاظ وعي المسلم، ومن ثم تقويم شخصيته وإصلاح سلوكه، إنما هو إجراء شكلي ظاهري، لا يتعدى الترقيع الذي لا يصل إلى لبّ القضية. وهنا تكمن المهمة المقدّسة للتربية، فليس هناك إلاّ طريق واحد لإنقاذ الأمة الإسلامية إنقاذاً حقيقياً، وذلك بتربية الأمة من جديد على أساس الإسلام."(٢)

فقد تعوّد المسلمون على تفسير مشكلاتهم بنسبتها إلى غيرهم، وكأنّ غيرهم مسؤول عن مصائبهم، عن وقوعها واستمرارها، بل حتى عن تقاعسهم عن القيام بحلّها. كل ذلك تجنباً للمسؤولية التي تقع عليهم حقاً. وقد ذكر مالك بن نبي ﷺ أن "لا استعمار دون قابلية للاستعمار،" وأنّ المصائب قلّما تَحلُّ في من يمنع نفسه منها ويعدّها للصمود ضدّها إذا وقعت، فإذا أردنا دفع المصيبة وحل المشاكل المستعصية، لزم علينا أن نبدأ بأنفسنا، ولن يكون لنا سبيل على أعدائنا إلا بانتصار لأنفسنا أوّلاً وآخراً.(٣)

---

(١) أبو سليمان، **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، مرجع سابق، ص٥٤.

(٢) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص١٠.

(٣) الفاروقي، **حساب مع الجامعيين**، مرجع سابق، ص٤٨.

ثالثاً: موقع الجامعة والجامعيين في إصلاح التعليم الجامعي

تعدّ الجامعة في عالمنا المعاصر محور تطوير المجتمع، ونافذته على المستقبل، والمجهر الذي يكشف علله وأدواءه، والطبيب الذي يبصّره بطرق العلاج، والرُبَّان الذي يوجه السفينة إلى بر الأمان، وهي القائمة على الحفاظ على خصائص الإنسان ومقوّمات وجوده المعنوية، ذلك أنها تجسّد مهمّة العلماء في خلافة الأنبياء، تنويراً للأفكار، وإصلاحاً للنفوس، وإرشاداً لها إلى طريق الخير، وتوثيق صلتها بجوهر الدين، وتحقيق أحكامه وقيمه في دنيا الناس أفراداً كانوا أم جماعات، مهما اختلفت مواقعهم ومراتبهم في الحياة.(١) فالتعليم العالي في العلوم والآداب يجب أن يعطى لمن يليقون به، كما أنه يجب أن يغذّي الرغبة في الوصول إلى الحقيقة.(٢)

في هذا السياق يمكن طرح التساؤلات الآتية: ما الشيء المفترض اطّراده داخل الجامعة؟ فالجامعة هي، في الأقل ومن حيث المبدأ، عالَم ما من الدراسات، بل هل يمكن للمرء أن يقول: إنّ الجامعة عالَم الدراسات؟ ولكن إذا كانت الجامعة عالَما كاملاً من هذا النوع، فما الشيء المفترض اطّراده فيها؟ وهل هناك أيّ شيء لا يكون بشكل شرعي، فرعاً منها، ضمن الحقل العام للدراسات، وبشكل أخص، الدراسات الأكاديمية؟ وهل هناك أي شيء في طريقة العمل الأكاديمي، والدراسة الفكرية، والبحث النظري لا ينتسب، رسمياً وعملياً، إلى الجامعة؟ ما الذي يؤسّس الجامعة بأي شكل كانت؟ وما الذي يحدّدها مهما كانت؟ وكيف تحدّد نفسها بما هي عليه؟ وكيف تخطّط نفسها أو تضع حدودها الخاصة؟ وهل هناك أيّ شيء في عالم الدراسة يمكن القول إنه ينتسب إلى خارج الجامعة؟ ما نوع البناء "النص" الذي يؤسس ميدان الجامعة أو ميادينها؟(٣)

(١) باجو، **نحو رؤية سليمة للمذاهب الإسلامية في المناهج الجامعية**، مرجع سابق، ص١١٣.

(٢) رسل، برتراند. **نحو عالم أفضل**، ترجمة: دريني خشبة وعبد الكريم أحمد، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٧م، ص١١٦، ١١٩.

(٣) سلفرمان، ج. هيو. **نصّيات بين الهرمينوطيقا والتفكيكية**، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٧٩.

يمكن الإجابة عن هذه التساؤلات بالرجوع إلى النص القرآني الذي يحدد مسؤولية العلم والعلماء في ترشيد الأمة وهدايتها إلى الطريق الصحيح. قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ: ٦]. فالعلماء هم الأقدر على القيام بعملية الإصلاح، وقيادة المجتمعات، وتوجيهها الوجهة الصحيحة، والمدخل إلى الدين، وإلى الواقع هو العلم، والأقدر على فهم الدين والواقع وإصلاحه هم العلماء. ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فالإسلام يعدّ العلم هو ميراث الأنبياء، كما جاء في قول رسول الله ﷺ: "إنّ العلماء هم ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يُوَرّثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورّثوا علماً، فمَن أخذ به أخذ بحظ وافر."[1]

فالعلماء هم الذين ينتجون الفكر الذي يسير المجتمع بمقتضاه في أمور دينه ودنياه. "انطلاقاً من الدين، ولعلّ هذا التصور غائب عن القائمين على شؤون التعليم الجامعي، وهو ما يعكس النظرة الخاطئة للعلم والمعرفة ذات البعد السنني الرسالي، فبخلاف المفهوم الغربي للعلم، الذي لا يتعدّى استغلال الطبيعة والسيطرة عليها، فإنّ المفهوم الإسلامي له يتوجّه صوب الشكر، شكر الله على النعم التي أسداها عليه. ومن حسن الحظ أنّ الإنسان لا يبدأ في البحث عن المعرفة من فراغ، فهو مزوّد بعدد من المواهب التي تجعل بحثه سهلاً ومطلبه في المتناول. لقد وُهب الإنسان الحواس وملكات الذاكرة والخيال وإدراك النظريات والقيّم، وتعلو فوق ذلك كلّه قدرة العقل النقدية على التوجيه والموازنة والتنسيق والتصحيح والتوثيق انتهاء بتنظيم المعرفة المكتسبة، وربطها بالفعل."[2]

ولتجسيد هذه الرؤية السليمة يتوجب على الجامعيين -بنظر الفاروقي- إنشاء جامعة تحقّق الأهداف الآتية:

---

(١) إسماعيل، **الدين والعلم وقصور الفكر البشري**، مرجع سابق، ص٤٢١، ٤٢٤.

(٢) الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٣٣٤.

أ- تراث العلم البشري والمقدّس، وذلك من خلال:

- فهم وتحقيق حقائق الوحي الذي نقله وحفظه لنا القرآن والسنة.
- فهم وتحقيق المعرفة التي توصل إليها تراث العلم الإسلامي في المجالات كافة.
- فهم وتحقيق المعرفة التي توصلت إليها الإنسانية في العصور الحديثة وفي كل المجالات.

ب- الأمة ومشكلاتها:

- تعمل الجامعة على فهم وإبراز أسباب انحدار المسلمين والآثار الناجمة عنه أولاً.
- فهم وإبراز واقع الأمة في كل مظاهر وجودها.
- فهم وإبراز المشكلات التي تؤثر في حياة المسلمين في كل مجالات السعي.

ت- الصلة الوثيقة للإسلام بالوضع الحالي:

- على الجامعة والجامعيين كشف وتحديد صلة الإسلام الوثيقة بكل مجالات المعرفة الإنسانية والسلوك الإنساني من جهة.
- وترجمة صلة الإسلام الوثيقة هذه إلى مدركات منهجية تساعدنا على فهم ووضع القواعد العملية اللازمة للتنفيذ من جهة ثانية.
- ثم رسم وإقامة الخطط ووضعها في متناول المسلمين حالياً، من أجل تمكينهم من حل مشكلاتهم وتحقيق قيم الإسلام من جهة ثالثة.

ث- الإسلام والعالم: وذلك من خلال:

- فهم وإبراز وقائع الحاضر والمشكلات التي تجابه غير المسلمين في أنحاء العالم.

- كشف وإثبات صلة الإسلام الوثيقة بحاضر غير المسلمين ومستقبلهم.
- ترجمة هذه الصلة إلى برامج تساعد على اتخاذ القرار والممارسة.

ج - تربية المسلمين: وذلك بـ:

- تربية الرجال والنساء.
- تنمية القدرات الانفعالية والثقافية اللازمة لتحمل تبعات تحقيق الأهداف التي سبقت الإشارة إليها فيهم.
- تدريبهم على فنّ تحويل أنفسهم والبشرية إلى أدوات للإرادة المقدّسة، من أجل تحقيق أوفى للهدف المقدّس في التاريخ.

ح - حفظ التراث وإغناؤه، من خلال:

- تهيئة الخدمات الضرورية، لتمكين الدارسين والفنانين المسلمين من توضيح روح الإسلام وحركته والتعبير عنه.
- توثيق وحفظ الأعمال ذات الطابع الإسلامي عبر التاريخ.[1]

والخلاصة، هي أنَّ الحفاظ على هوية المجتمع إنَّما تكون عن طريق التربية والتعليم، لكن ذلك لن يتحقّق إلا بعد جهد كبير تبذله الجامعات في العالم الإسلامي، من أجل الوصول إلى التوعية الشاملة بالإسلام أولاً، والوصول إلى هيمنته على أهداف التعليم ومناهجه وطبعها بطابعه المتميز ثانياً. فالجامعات تؤدي دوراً كبيراً في نشر الوعي العام، وتكوين قيادات المستقبل؛[2] لأنها جهاز تعليمي ولا ينبغي لها أن تغط في نوم عميق ولا تستجب لمتطلبات المجتمع من حولها. ولا بدّ للجامعة من أن تلبّي احتياجات المجتمع، فتنبعث من سكونها الأكاديمي إلى التفاعل الحيوي من حولها أخذاً وعطاء، بمعنى أن تكون خططها

(١) الفاروقي، **نحو جامعة إسلامية**، مرجع سابق، ص٤٧، ٤٨.

(٢) العمري، أكرم ضياء. **التراث والمعاصرة**، قطر: المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، كتاب الأمة، عدد١٠، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص٩٥، ٩٦.

obeikan.com

وبرامجها متوافقة مع الغايات الاجتماعية التي تسعى لتحقيقها، وهذه من أصعب الأمور والتحديات التي تواجه الإدارة العليا للجامعة.[1]

رابعاً: مسؤولية الجامعة والجامعيين في عملية إصلاح التعليم والنهوض به

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن عندما نتحدث عن أزمة التعليم الجامعي في العالم الإسلامي هو: هل الجامعيون هم المسؤولون والمطالبون بالمبادرة؟ لماذا يقع الحساب أولاً وآخراً عليهم؟ هل يملك الجامعيون سلطة أخذ القرار بشأن أمور التعليم الجامعي أو أنهم ينفّذون سياسة تعليمية معينة تفرض عليهم من جهات حكومية؟ ألا تعدّ أزمة التعليم الجامعي جزءاً من أزمة الأمة بصفة عامة؟ وإذا كانت مشاكلنا مستعصية لهذه الدرجة، وقد أصبحت حلقة مفرغة أطبقت علينا من جميع الجهات، فلماذا يترّتب كسرها على الجامعيين؟ وعليهم فقط دون غيرهم من القيادات؟ وهل في العلم والحقيقة شرق وغرب أو إسلام وكفر؟ أم العلم يستخدمه الفاضل للطيب ويستخدمه الفاسق للخبيث؟ ألا يعود تأخّرنا إلى نقصنا في العلوم بقسط كبير؟ وإن امتنعنا عن أخذ العلم عن الغرب، فمن أين نحصل عليه؟ هكذا يقول المستغربون منّا كما يقول الفاروقي.[2]

الجواب كما يقول الفاروقي: "حقاً، لا ينتظر أن يكسر الطوق، وننجو من الحلقة المفرغة إلا إذا تحمل الجامعيون مسؤوليتهم. وذلك لأسباب ثلاثة:

أولاً: إن الوعي بالمشكلة الأمّ، وتصوُّر الحل الفعّال، وترجمته إلى رؤية جلية واضحة هو بالذات عمل الجامعيين وصنعتهم. ويجب أن يكون ذلك هو شغلهم الشاغل، فإن قاموا بواجبهم هذا وهم مكلّفون؛ أي مكلّفون بإثبات الرؤية، بتعميقها وتوضيحها ونشرها، بتفهيمها وإرساخها في عقول الطلبة.

(١) سفر، محمود محمد. **دراسة في البناء الحضاري (محنة المسلم مع حضارة عصره)**، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، كتاب الأمة، عدد٢١، ط١، رجب ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٣٨.

(٢) الفاروقي، **حساب مع الجامعيين**، مرجع سابق، ص٤٩.

فإن لم يفعلوا فهم إما غير أهل لمناصبهم الجامعية، أو مُخِلُّون بواجبهم الذي هو جوهر صنعتهم.

ثانياً: وما العمل إذا كان جامعيونا من غير هذا الوصف، أو كان معظمهم ممن ينظر إلى مهنته بوصفها وظيفة للارتزاق منها؟ أو رأوا أنفسهم مثل رعاع الأمة، غير مكلّفين، وغير قادرين على حمل هذه المسؤولية الضخمة؟ أو لم يأنسوا في أنفسهم العدد والعدّة اللازمين للقيام بها؟ الجواب أنهم أنفسهم المعنيون بأمر تربية خلفائهم في العلم وإعدادهم، وإكثارهم عدداً وعدة. أو ليست الجامعة مصنع الرجال، ومعهد إعداد القادة؟ أليس الجامعي هو من يناط به الأمر، ويلام إذا أخفق؟ أليست الجامعة المؤسّسة الوحيدة في الأمة التي إن أعوزها الرجال الأكفاء لا يجوز لها أن تنظر إلّا لنفسها؟

ثالثاً: وإذا رأى الجامعيون أنفسهم معلّمي تدريب، هدفهم تخريج الطبيب، والمهندس، والمحامي، والمربّي المتقنين لصنعتهم دون الاهتمام بما يدينون به من فلسفة حياة، أو علاقة ولاء، أو أسلوب معيشة، أو عضوية اتجاه، تاركين ذلك للتربية البيتية، والبيئة، والذوق الشخصي، عندها يكون على الجامعيين أن يصلحوا أنفسهم، فهم صانعو المستقبل لأمّتهم، وهم المكلّفون بحراسة نفوس الطلبة وإعدادها لبناء هذا المستقبل، هم المكلّفون بتعزيز إيمان الأمة بنفسها، وبمستقبلها، ورعاية هويتها."[1]

يرى الفاروقي أن الجامعيين مطالبون بتقديم حلول لمشاكل أربع هي المشاكل الأم في تأخّر المسلمين وانحطاطهم، وتتمثّل فيما يأتي:

١- القضاء على الاستغراب

يتساءل الفاروقي في مستهل حديثه عن الاستغراب بقوله: "وهل الاستغراب مشكلة؟ ألا يجدر بنا أن ننفتح على الحضارات الأخرى ونأخذ النافع منها؟

(١) المرجع السابق، ص٤٨-٤٩.

Obeikan.com

لا شك أنّنا مكلّفون بتحصيل العلم أنّى وُجد، والإفادة منه في تعزيز الأمة، وتنمية مواردها، وازدهارها. فطلب العلوم له آداب ينبغي مراعاتها، ونقل العلوم عن الآخرين له شروط لا بدّ من تحقيقها. أولّها إتقان العلم والهيمنة عليه؛ أي الإلمام التام والتفهّم الكامل لكل ناحية من نواحيه. فالتعرّف السطحي بالعلم لا يكفي ولا يغني، والاكتفاء به جُرم. وعلى المسلم الذي يطلب العلم أن يَنفَذَ إلى الحقول والمكامن كافة، ويحيط بتاريخ العلم ومنجزاته، ويدرك منهجه، ومسالكه العملية، ويعرف مشكلاته وآماله حتى يقف على نشأته وحاجاته وإمكاناته، ولا يجوز للمسلم المبتعث من بلده إلى البلدان الأخرى الحصول الجزئي أو عدم الهيمنة على العلم المنبعث لأجله؛ ذلك أنّ التحصيل الجزئي يؤدي إلى اعتماد الأمة على الآخرين، وعدم الاستغناء عنهم. فكلما احتاجت الأمة إلى ذلك العلم اضطرت إلى ابتعاث أبنائها من جديد أو استيراد الكفاءات الأجنبية، وهذه هي التبعية البغيضة التي يجب على الأمة التخلّص منها."[1]

٢- القضاء على الازدواجية

يقول الفاروقي: "إن أصعب مهمة تواجه الأمة الإسلامية في القرن الخامس عشر الهجري، في سبيل حل أزمة الفكر والمعرفة الإسلامية هي إيجاد حل لـمُشكلة التعليم؛ إذ لا يمكن أن يكون هناك أي أمل في إحياء حقيقي للأمة ما لم تصحّح نظامها التعليمي وتقيّم أخطاءه. بل إنّ ما نحتاج إليه -في الحقيقة- هو إعادة تشكيل هذا النظام من جديد. فالازدواجية الراهنة في التعليم الإسلامي التي تقسّمه إلى نظامين أحدهما إسلامي، والآخر علماني لا ديني، يجب أن تلغى إلى الأبد، وأن يكون النظام التعليمي نظاماً واحداً ينبع من الروح الإسلامية، ويعمل بوصفه وحدة متكاملة مع برنامج الإسلام العقيدي."[2] فهذه الازدواجية في التعليم، مشكلة يجب

(١) الفاروقي، **حساب مع الجامعيين**، مرجع سابق، ص٥٠.

(٢) الفاروقي، **إسلامية المعرفة**، مرجع سابق، ص٥٧.

حلّها، من أجل نظام موحد للتعليم، ينبثق عن أحسن ما في القديم، وأفضل ما في الحديث.[1] وهي مشكلة ورثناها عن الإدارة الاستعمارية التي أفرزت لنا خريجين من نظامين تعليميين متباينين، ينتجان فريقين من الناس: كلا الفريقين ممسوخان: أناس متخصّصون في العلوم الحديثة لا يعون هويتهم، ويجهلون تراثهم، ولا رؤية حضارية لهم، فهم ضياع، وأناس متخصّصون في العلوم الإسلامية المقتصرة على الدراسات الفقهية، لا يعرفون من العلوم الحديثة شيئاً، ويجهلون العالم الحديث ومشكلاته، رغم معيشتهم فيه ومعاناتهم لمشكلاته.

لقد أوجدت الازدواجية تبايناً، بل هوّة بين رجال الأمة، بين من اضطلع بالرؤية والتراث الإسلاميين، ومن استغرب رؤية أو فكراً أو طباعاً. والمستغربون بعيدون كل البُعد عن ضمير الأمة وإحساسها وتطلعاتها. والإسلاميون يعوزهم الإلمام بالعلم الحديث، بمشكلات الأمة والعالم من حولها. ولا حلَّ للازدواجية إلا في الجامعة. فالجامعة فقط هي الحافظة والمربية والمعلّمة. هي وحدها التي تستطيع إزالة الازدواجية في الأمة بإزالتها من التعليم، والتعليم اختصاصها. فما عليها إلا أن تحسن تعليمها، وذلك بتعليم طلبتها التراث الإسلامي وتوعيتهم حضارياً، وتمكينهم من العلوم الحديثة، ومن مشكلات الأمة من منظور الإسلام، فيتخرجون موحّدي الشخصية.[2]

٣- القضاء على التقطيب

لقد كان التقطيب نتيجة حتمية للاستغراب والازدواجية التي ابتلينا بما ابتلي به الغرب الذي نقلنا عنه، وجاء على أشكال متعددة منها: تقطيب الدين والحياة، وتقطيب الأخلاق والتعليم، وتقطيب الفكر والعمل، فما فحوى هذا التقطيب؟ وكيف يتم القضاء عليه؟

---

(١) سفر، **دراسة في البناء الحضاري (محنة المسلم مع حضارة عصره)**، مرجع سابق، ص٦٤.

(٢) الفاروقي، **حساب مع الجامعيين**، مرجع سابق، ص٥١، ٥٢.

أ- تقطيب الدين والحياة:

إن حياتنا الجامعية اليوم لا تعرف شيئاً من الممارسة الدينية، وهي تميل كل الميل إلى علمانية شاملة لكل شيء، فقد استحكم التقطيب في جامعاتنا، فأصبحت الممارسة الدينية قليلة ممتهنة لا تعطي حقها لا في المكان، فقلما تجد مسجداً يقع من أي حرم جامعي موقع القلب، ولا في الزمان؛ إذ لا تجد جامعة واحدة في العالم الإسلامي كله أقامت برامجها على جدول الإسلام الزمني.(١)

إن الإسلام دين شامل لجميع أمور الحياة، لكن أين الجامعة التي تضعه فعلاً في مقدمة فكر الأستاذ والطالب، وتجعله محور حياتهما الجامعية. فإذا تقطّب الدين عن الحياة في الجامعة، هل من غرابة إذا تقطب عن الحياة خارجها؟

ب- تقطيب الأخلاق والتعليم:

لقد سادت في العالم الإسلامي، وجامعاته فكرة الغرب القائلة: "إنَّ العلم والتعليم شيء، والأخلاق شيء آخر." يدافع الغرب عن تخصّص الجامعة بالعلم والتعليم، وإبعاده للأخلاق عنها بالزعم أن عملية اكتشاف الحقيقة وتثبيتها عملية مجردة من الأخلاق، وأنها تفسد إن دخلتها الأخلاق بوصفها عنصر بحث، كما أن غاية الجامعة وأستاذها هي التعليم لا إصلاح الناس. فالتعليم والإصلاح عمليتان تخصّصيتان منفصلتان عن بعضهما بعضاً تمام الانفصال. للتعليم رجاله وهم الأساتذة الجامعيون، وللإصلاح رجاله وهم الأولياء، ورجال الدين.

ت- تقطيب الفكر والعمل:

ينبهنا الفاروقي إلى مسألة يعاني منها مثقفونا وبعض مفكرينا، وهي مسألة استيراد الأفكار من واقع غير واقعهم، ومشكلات مجتمعات تختلف عن مجتمعاتهم؛ إذ يقول: "وآفة أخرى من آفات الاستغراب والازدواجية أنَّ العلم

(١) يجب أن نلاحظ الفرق الكبير في الحضور الديني في جامعات العالم الإسلامي بين الحقبة التي كتب فيها المرحوم الفاروقي هذه الملحوظات والواقع القائم حالياً؛ إذ تجد للمسجد والمصلّيات في الجامعات حضوراً ملموساً، وإن كان الأمر يتفاوت كثيراً من بلد إلى بلد آخر. (المحررون)

المنقول عن الأجانب، وهو نابع من صميم مجتمعهم لمعالجة مشاكله، لا ينطبق على مجتمعنا، وعَيْنا ذلك أو لا. وطالما أننا لا نعي هذه الحقيقة في معظم الأحيان ظنّاً منا أنه موضوعي ينطبق على من في الأرض ومن في السماء كما ادعى الغربيون في غلوهم وضلالهم، نتعلّم العلم المنقول دون ما نحاول تطبيقه على واقعنا، نتعلّمه كالببغاء."[1]

والأصل في الإسلام القائد هو المفكر، والمفكر هو القائد. هذا التكيّف والترابط في الإسلام بين الفكر والواقع هو الذي جعل الصالح العام للأمة عند أفرادها كافة، رجالاً ونساء هو بؤرة هذا الفكر ومحط اهتمامه. غير أن هذه الوحدة بين الفكر والعمل لم تستمر واختلفت توجهاتها وانفصمت عراها فيما بعد. ومنذ اللحظة التي تم فيها هذا الفصام بدأ تدهور كل من الفكر والعمل. وكانت النتيجة قيام حالة من التخبط أدت إلى عزلة الحكماء، والعلماء عن الواقع، وإعراضهم عن القضايا المهمة للأمة من ناحية، وإلى عزل القيادة عن منابع طاقات الفكر، والحكمة من ناحية أخرى، وإلى توسيع الشقة فيما بين الطرفين مع مضي الزمن.[2]

ث- تقطيب الجامعة والمجتمع:

يشير الفاروقي إلى قضية الفصل التام بين الجامعة والمجتمع، فيقول: "فالجامعة عندنا مركز للتعالي على المجتمع؛ إذ ينظر الجامعيون -أساتذة وطلبة- إلى المجتمع من علٍ ظنّاً منهم أنهم أفضل منه وأجدر برغد العيش وأقرب منه إلى التفرنج. وما من جامعة في بلادنا تعدّ نفسها امتداداً للمجتمع قائمة لخدمته، فالجامعات عندنا لا تفتح أبوابها للمجتمع، ولا تقيم البرامج التي يستطيع أعضاؤه المشاركة فيها. فكم من الأساتذة والطلبة يرضى بتحمل المسؤولية إذا ظهر تلامذتهم وسلكوا مسلكهم في المجتمع؟ ألا يحاسب الجامعيون على هذا

(١) المرجع السابق، ص٥٥.

(٢) الفاروقي، **إسلامية المعرفة، المبادئ العامة-خطة العمل-الإنجازات**، مرجع سابق، ص٧٩-٨٠.

التقطيبات التي تفسد الجامعة، وتفسد المجتمع، وتفسد التعليم نفسه؟"[1]

٤- الرسالة

إن أهم ما تعاني منه جامعاتنا هو ذلك النقص المريع في الوعي الرسالي، وهو نقص يعاب الجامعيون عليه؛ لأنه من صنعهم، فالجامعة عندنا ليست معهداً لتوفير ما تحتاجه الأمة من مهارات وكفاءات، بل هي تدرّب وتخرّج العقول، لتتسرّب إلى الخارج وتعمل في خدمة الآخرين. لقد نسي الجامعيون أننا أمة ذات رسالة سماوية، ونسي الجامعيون أنهم مكلفون للقيام بدور محوري في التاريخ، استخلفهم الله في الأرض، كي يقيموا دينه، ويعمروا الأرض، ويزيدوها خيراً وجمالاً. إنّ رسالة الجامعيين والبشر أجمعين هي تحقيق الحق، وبيان سنن الله في خلقه التي لا تبديل لها.

ولئن كان للرسالة معبد هي قدس أقداسه، فذلك المعبد هو الجامعة، لكن أين الجامعيون من هذا الوعي الرسالي؟ وأين هم من القيام بأعبائه؟ أين الجامعيون من الرسالة المحمدية؟ كم منهم أعدّ نفسه لتحمّل عبئها بأبعاده الحضارية والعالمية؟[2] ينبغي أن يعلم الجامعيون والقائمون على مؤسسات التعليم العالي أنّ الجامعة، والأستاذ الجامعي، والطالب الجامعي هم الذين سيضعون اللبنة الأولى على مستوى الأمة، بإعدادهم لكوادر العمل والأداء الجماهيري، هم الذين يصنعون رؤى المفكرين الإصلاحيين على هيئة مناهج علمية أكاديمية، لتنشئة الكوادر الاجتماعية في الأمة، وتعليمها وتدريبها، إنهم يؤهّلون المجتمع لأداء دوره الرسالي في تربية أبنائه التربية السليمة التي تحدث التغيير والإصلاح، وذلك بإعادة تشكيل الرؤية الكونية الحضارية لأجيال المستقبل.[3] "ذلك أن التعليم الجامعي هو الجهة المنوط بها إعداد الأجهزة

(١) المرجع السابق، ص٥٥، ٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص٥٦، ٥٧.

(٣) أبو سليمان، **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، مرجع سابق، ص٤٩.

المثقفة العلمية والتقنية والفنية، خاصة في مجال العلوم العقدية والقانونية والفقهية والاجتماعية والإنسانية، ولتحقيق هذه الغايات لا بدّ من إصلاح المنهجيات العلمية التي تدرس في مراحل دراسات التعليم العالي، وتوحيد هذه المناهج ومصادر المعرفة فيها وتكاملها إسلامياً وسنياً، حتى يبنى فعلاً المثقف والمختص الإسلامي البديل في كل مجالات المعرفة الإنسانية والفيزيائية، وحتى يمكنه أن ينتج الفكر والثقافة الإسلامية الهادفة الموحّدة البديلة."[1] وهذا ما يؤكد عليه عالم النفس الشهير ألفريد آدلر (١٨٧٠ - ١٩٣٧م) بقوله: "لكن أهداف وطرق التعليم مازالت غير مفهومة تماماً. ويجب علينا أن نجد مدرسّين يستطيعون تدريب الأطفال على العمل بطرق مفيدة، وفي صالح كل البشر وليس على كسب معيشتهم فقط، فيجب أن يكونوا على وعي بأهمية المهمة، ويجب تدريبهم على إنجازها بكفاءة تامة؛"[2] لأنّ عمل التعليم أو المعلّم لا ينبغي أن يقتصر على تعليم الأفراد أو المتعلمين فنون كسب العيش، بل ينبغي تعليمهم فنون الحياة السعيدة الرشيدة.

خامساً: الآليات المعتمدة لإصلاح التعليم الجامعي

هناك جملة من التساؤلات ينبغي طرحها عند حديثنا عن الآليات المعتمدة لإصلاح التعليم الجامعي، يمكن أن نوجزها فيما يأتي: ما هي نظرية المعرفة التي ينبغي أن تسود في حياتنا الفكرية المعاصرة؟ هل نخضع للتصور الغربي المحدود الذي يولّد الثنائية في حياتنا، فنصبح علميين علمانيين في الجامعات، ومؤمنين متدينين في الجوامع؟ كيف نخلص من الازدواجية والفصام في حياتنا الفكرية؟ كيف نتجاوز الوصف الذي قدمه "ويل ديورانت" حين قال: "والمهرب الوحيد الجدير بالعقل الناضج هو أن ترتفع عن النظر إلى الشوارد والأجزاء

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **أزمة الإرادة والوجدان المسلم**، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٢٠٧.

(٢) آدلر، ألفريد. **معنى الحياة**، ترجمة وتقديم: عادل نجيب بشرى، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، عدد٧٠٩، ٢٠٠٥م، ص٢٠٣.

حتى نتأمل الكل... وثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطرة؛ لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأغراض."[1] بمعنى آخر: هل توضّحت للعلماء والجامعيين الأهداف والغايات التي يريدون تحقيقها؟ وهل أدركوا المهمة المطلوبة منهم في عملية الإصلاح؟ هل عملوا على إعادة صياغة ميراث البشرية العلمي من جديد من منطلق إسلامي؟ هل سعى العلماء والعاملون على إعادة صياغة المعلومات وتنسيقها، وإعادة التفكير في المقدمات والنتائج المتحصّلة منها، وتقويم الاستنتاجات التي انتهى إليها، وإعادة تحديد الأهداف بحيث تغني التصور الإسلامي وتخدم أهداف الإسلام؟[2]

إن الغرض من إصلاح التعليم الجامعي اليوم هو إصلاح واقع الأمة الإسلامية، لتضطلع بأداء دورها الرسالي الحضاري بين الأمم الأخرى، فتحقق الأمة الوسط والشهود الذي وصفت به في القرآن. هذا من جهة الغرض العام، أما من جهة الغرض الخاص لإصلاح التعليم الجامعي، فهو إصلاح الفكر الإسلامي، ليعود إلى هويته وخصوصيته ورساليته، فيصبح بذلك قادراً على توجيه أفراد الأمة توجيهاً صحيحاً معافى من الأمراض والعلل التي أقعدت الأفراد عن القيام بمسؤولياتهم المنوطة بهم شرعاً وواقعاً.

فما هي الآليات الفكرية والمنهجية المعتمدة لوضع محتوى الجامعة وطريقة عملها، حتى تصير قادرة على إنتاج الفكر الإسلامي؟

١- الآليات المنهجية

تتمثل الآليات المنهجية في بناء الرؤية الكلية، وإعمال النظرة الشاملة للأشياء والأحداث. ففيما يختص بالرؤية الشاملة يرى الفاروقي أن البحث عن

---

(١) ديورانت، ويل. **مباهج الفلسفة**، نيويورك، ١٩٥٢م. نقلاً عن صلاح الصاوي: **دور المفكر اليوم وعلى مر العصور في أمته وتجاه الإنسانية في كل من قضايا الساعة وآفاق المستقبل**، محاضرات ومناقشات الملتقى الثامن للفكر الإسلامي، بجاية، الجزائر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص٢٩٨.

(٢) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص١٤.

المعرفة كي يكون أصيلاً لا بدَّ أن تكون وراءه روح تدفعه، وهذه الروح لا يمكن أن تستعار أو أن تستورد، وإنما تتولّد من تصور واضح عن الإنسان والكون والحقيقة؛ أي من الدين. فالتعليم العالي في البلاد الإسلامية وقع في آفات كثيرة منها: آفة التقليد والمحاكاة "... وذلك أنَّ جلَّ أنظمة التعليم العالي في البلاد الإسلامية وفلسفاتها غريبة أجنبية عن ضمير الأمة وغاياتها الحضارية، معتمدة التقليد والمحاكاة، لا تأخذ في الحسبان الطبيعة والسمات الشخصية للحضارة الإسلامية ومنطلقاتها وقيمها، والمبنية على التوحيد والاستخلاف، وغائية الوجود وأخلاقيته، ووحدة منطلقاته، وتكامل أبعاده المادية والروحية والأخلاقية وأبعاده الدنيوية والأبدية..."[1]

وما يؤكّد هذا الكلام، هو أنّ المواد والمناهج التي تدرّس في معظم جامعاتنا هي نسخ معادة مما يدرّس في الغرب، مع خلوّها من التصوّر الذي يشكّل القوة الدافعة وراءها في البلاد الأصلية. ودون هذا التصور تصبح هذه المواد والمناهج من عوامل الضعف.[2] وإنّ هذا التصور يكون نابعاً من التوحيد بوصفه جوهر العقيدة، الضابطة لحركة النظر والعمل، والموجّهة لنشاط العقل والفعل. فإذا كان التوحيد العقدي لله سبحانه، فثمة توحيد من نوع آخر في مجرى الحياة. لقد أرادت العقيدة أن تلّم الثنائيات كافة التي تمزّق الحياة البشرية والوجود الإنساني، وأن توحّدها وتعيد إليها التلاؤم والتناغم والوئام... إحدى هذه الثنائيات كانت معضلة الروح والجسد التي تعدّ في نظر المسلم شيئاً غير معقول، أو في أحسن الأحوال شيئاً غير واقعي.[3]

---

(١) أبو سليمان، **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، مرجع سابق، ص٦٨، ٦٩.

(٢) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص١٢.

(٣) لاندو، روم. **الإسلام والعرب**، ترجمة: منير البعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧م، ص٥١. نقلاً عن: عماد الدين خليل. **الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٤٤، ٤٥.

لقد أشرنا في بداية البحث إلى افتقار معظم حركات الإصلاح للبصيرة في تحديد علة المأزق الراهن الذي يعاني منه المسلم، وعجزها عن بلورة رؤية كلية كونية عن الإسلام، تبرز علاقته بكل لحظة من حياة البشر، وبكل أطياف النشاط الإنساني المعاصر، وبيان صلاحيتها بوصفها أساساً لوجود الإنسان في عصره.(١) إن إصلاح الرؤية الإسلامية، وسلامة المنهج الفكري، واستعادة صورتها القرآنية الكونية الشاملة الأصلية شرط أساس لتنقية الثقافة، وإصلاح مناهج التربية والتعليم، التي هي بدورها شروط أساسية لإصلاح البناء المعرفي والوجداني في النفوس. فإذا شئنا أن نضع مسيرة الإصلاح على الاتجاه السليم، فإن علينا أن نعكس أولوياتنا في خطة التربية والتعليم، وأن نقدم النوع على الكمّ، والمعاني على المباني، والمناهج على الوسائل.(٢)

وعليه، فإنّ عملية التعلّم والتعليم في مختلف مجالات المعرفة لا يمكن أن تؤتي أكلها، ولا يمكن تتبّعها دون إطار من القيم والأخلاق، بمعنى آخر دون المنظور الإسلامي. فالإسلام يعطي المعنى النهائي للحياة والوجود بأسره، ذلك المعنى الذي أدركه أجدادنا من سنة الله في خلقه ومن الوحي، وتشرّبت به أرواحهم وعقولهم، وتحرّكت به ضمائرهم.(٣)

أما فيما يختص بالنظرة الإسلامية الشاملة إلى الأشياء والأحداث، فيرى الفاروقي الأهمية الخاصة لهذه النظرة في ترشيد الحركة العلمية والفنون الصناعية؛ إذ لا بدّ أن تتقدم النظرية الكشف عن الجديد والوصول إلى حقائق المعرفة. وقد أقام المسلمون حضارتهم في العصور الذهبية ضمن إطار تصوري وعقلي استمدوه من الكتاب والسنة، وتبلور بشكل قواعد عقلية استخدمها النظّار

---

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٢٨.

(٢) أبو سليمان، **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، مرجع سابق، ص٧١، ٧٢.

(٣) الفاروقي، إسماعيل. "الإسلام والمدنية "قضية العلم""، ترجمة: صلاح الدين حفني، **مجلة المسلم المعاصر**، الكويت، السنة ٩، عدد٣٦، شوال ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٩.

والفقهاء والأصوليون.[1] فالنظرة الإسلامية شرط أساسي ودونها لا يستطيع الدارس أن يحاول معرفة أكثر من أستاذه، وهي أيضاً ضرورية لحيازة مفاتيح المعرفة ونقلها إلى وطنه، بل ويدفع بها إلى مستوى أرفع مما وصلت إليه عند الغرب، فالنظرة الشاملة سوف تكسب الأهداف أهمية لا تقل عن التحصيل العلمي، محاولة نقل هذا العلم إلى الأمة. والمتطلبات الأساسية لذلك هي تمكين الدارسين من التفوق، وذلك بجعل برامج تعليمية مركزة، وتجميع المعلومات وتنسيقها، وإعادة النظر في منجزات العالم من المعرفة، وتنمية هذه المعرفة بمزيد من البحث.

٢- الآليات الفكرية

يمكن عدّ هذه الآليات بمثابة كلّيات فكرية ينبغي أن يقوم عليها جهد الجامعيين في عملية إصلاح التعليم الجامعي، وتتمثل هذه الكليات في الانطلاق من حقيقة أنه لا تناقض بين العلوم الثقافية والأخلاقية، ولا تناقض بين العقل والوحي، ولا تناقض بين الفرد والمجتمع.

تُعدُّ الجامعة مؤسسة تتحمل التبعات الثقافية والأخلاقية في الوقت نفسه، وهذا الهدف الثنائي ينبثق من المنظور الإسلامي، فالحقيقة واحدة ومعرفتها واحدة مثلما أن الله واحد. وهكذا فإن الحقيقة الثقافية أو الحقيقة النظرية لا يمكن فصلها عن الحقيقة الأخلاقية أو العملية فيما عدا على المستوى المجرد.[2] ولذلك يستحيل في نظر الإسلام الفصل بين الأخلاق والدين، فالأخلاق مؤسسة بالكلية على الدين. ولا يعرف العقل المسلم أية ثنائيات متقابلة: مثل الديني/ العلماني، المقدّس/ الدنيوي المدنّس، الكنيسة/ الدولة. ومن ثمّ، فإنّ المبدأ الأوّل للمعرفة الإسلامية هو وحدة الحق. كما أن مبدأ الحياة البشرية يعود إلى نفس واحدة هي آدم عليه السلام، والمبدأ الأوّل

(١) العمري، **التراث والمعاصرة**، مرجع سابق، ص٧٠.

(٢) الفاروقي، **نحو جامعة إسلامية**، مرجع سابق، ص٤٨.

للوجود هو وحدانية الله تعالى، وكل هذه الوحدات الثلاث مترابطة فيما بينها على نحو لا يقبل الانفصام.[1]

إنّ المعلومات التي يستهدفها البحث النظري هي ذاتها التي يستهدفها الاختبار العملي، فالأثر الناجم عن الأول هو الفهم، والأثر الناجم عن الثاني هو التقويم أو المواءمة، ومن ثمّ فهما يشكّلان واحداً، والعملية المؤدية إليه واحدة، بل هي نفسها، وإن دراسة الإنسان لنفسه وللآخرين وللخلق دراسة إسلامية، يجب أن تشمل كلّاً من المظاهر النظرية والقيمية، وحينئذ سيكون اكتسابها "حكمة". تلك الحكمة التي تعدّ دائماً جامعة لنوعين من المعرفة النظرية والقيمية.

لقد بدأت هذه الوحدة بين الحقيقة، ومعرفة الحقيقة في التفتت في العالم الغربي، تحت مسمى التحرّر من سلطة الكنيسة، وبدأت العلوم الاجتماعية في اتباع مناهج العلوم الطبيعية، وبدأت الجامعات الغربية في الادعاء بأن مجالها هو العمليات الثقافية الصرفة المنفصلة تماماً عن الاعتبارات الأخلاقية، وأنّ إنجازات الطالب الثقافية شيء آخر مستقل عن شخصيته وسلوكه الأخلاقيين. وبالتدريج فقد أساتذة الغرب كل الاهتمام برؤية تلاميذهم الشخصية، وإيمانهم وسلوكهم. ولهذا لا ينبغي للجامعة الإسلامية أن تنتهج تقسيم الغرب للعلوم، لأنه يرتكز على تصور خاطئ لعلم المعرفة. بل إنّ هدفها يجب أن يكون تنمية الإنسان الكامل.

وفي سياق تأكيد عدم وجود تناقض بين العقل والوحي، يقول الفاروقي: "إنّ التقسيم الثنائي للمعرفة بين علوم عقلية وعلوم نقلية تقسيم زائف، وإنّ النظر إلى المعرفة بوصفها إما نقلية أو عقلية يعني ضمناً أنّ الحقيقة التي أتت إلينا عن طريق الوحي ليست عقلية، ومن ثم غير عقلانية وإنما عقدية، وذلك لا يتفق مع جوهر وروح الإسلام. فوحدانية الله سبحانه وتعالى، وما يلي ذلك من وحدة الحقيقة والمعرفة، تتطلب عدم الفصل بين العقل والوحي، فإنّ النتائج

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص١٢٦.

الإمبريقية للعلوم النقلية تستطيع فقط أن تؤيّد النتائج الاستنتاجية للعلوم العقلية. والأمر الذي لا يقرّه الإسلام هو أن ننتهج منهج علماء الديانات الأخرى، وقبول ما يرونه من أنّ التناقض بين العقل والوحي أمر نهائي ولن يتم التوصّل إلى حلّ فيه، على اعتبار أنّ أحدهما عقلاني والآخر غير ذلك."[١]

أما في سياق تأكيد عدم التناقض بين الفرد والمجتمع، فإننّا نذكر بما يقوله "روجيه غارودي" عن مبدأ التوحيد الذي جعل الإسلام بصورة لا تتجزأ، دين وجماعة، عقيدة ونظام حياة.[٢] فمبدأ التغيير الذاتي في الإسلام، إنما يستهدف تحقيق هذا التوحّد بين الاعتقاد والفعل، بين الفكر والممارسة، ويمنح الضمانات ضدّ كل ما من شأنه أن يشرخ الإنسان المسلم والجماعة المؤمنة شرخين قد تقودانه ليس فقط إلى الازدواجية والتناقض بل إلى تضاؤل الفاعلية وربّما الشلل.[٣] وهذا بخلاف المنظومة المعرفية والتعليمية الغربية التي نادى بها "أوجست كونت"، والتي تقرّ بالفصل في العلوم الإنسانية بين العلوم التي تَدرُس الفرد والعلوم التي تَدرُس المجتمع، وهذا التقسيم كان ناتجاً عن نظرية من نظريات الحقيقة التي تعدّ المعلومات الاجتماعية قابلة للمعالجة العلمية على عكس المعلومات الفردية. وهذا اعتقاد خاطئ بنظر الفاروقي، فهو اعتقاد يؤمن بأنّ المعلومات الاجتماعية قادرة على أن توصلنا إلى الحقيقة بينما تعجز المعلومات الفردية عن ذلك.

والإسلام لا يعترف بشرعية التناقض بين الفرد والمجتمع، ومن ثم فهو لا يعترف بوجوب تقسيم المعرفة إلى علوم إنسانية وعلوم اجتماعية، فكل الفروع التي تقوم بدراسة الإنسان واحدة في منهجها وهدفها النهائي، فمنهجها عقلاني علمي وناقد، لا يقف بالمعلومات عند حد المحسوسات، وهدفها النهائي هو

(١) الفاروقي، **نحو جامعة إسلامية**، مرجع سابق، ص٤٩، ٥٠.

(٢) روجيه غارودي. **وعود الإسلام**، ترجمة: ذوقان قرقوط، القاهرة-بيروت: الوطن العربي، ١٩٨٤م، ص٢٣.

(٣) المرجع السابق، ص٤٥.

توعية الإنسان عن نفسه، وبيان ما ينطبق عليه في موقف معين، وكيف يتم تحقيق ذلك فعلاً.[١]

والنتيجة، هي أن "الإسلام هو تلك الرؤية لله، وللعالم وللإنسان، التي تنيط بالعلوم، وبالفنون، وبكل إنسان وبكل مجتمع، مشروع بناء عالم إلهي وإنساني، لا انفصام فيه باقتضاء البعدين الأعظمين: المفارقة والجماعة، التسامي والأمة."[٢]

٣- الآليات البيداغوجية (التربوية)

نبدأ حديثنا عن الآلية البيداغوجية بطرح التساؤلات التالية: هل يوجد في العالم الإسلامي مركز علمي يتم فيه البحث والتفكير على مستوى عال؟ هل سعى الجامعيون إلى إيجاد جامعة تعد مركز قيادة للفكر الإسلامي تتم فيه "أسلمة" جميع فروع المعرفة، كما يتم فيها تقويم كل شيء في حجرات الدراسة، وفي الحلقات والبرامج الدراسية سواء للطلاب أو للخريجين؟[٣] لماذا لم تعد مؤسّسات التعليم العالي ملائمة لروح العصر ومتغيراته الدائمة؟ لماذا لا تخرّج إلا قيادات ضعيفة محدودة الأفق؟ ضيقة التصوّر، تحفظ ولا تفكر، تسلّم ولا تنقد، تقلّد ولا تجتهد، تجتر ولا تبتكر؟[٤]

للإجابة عن هذه التساؤلات يقترح الفاروقي جملة من الشروط البيداغوجية لعملية إصلاح التعليم الجامعي نوجزها على النحو الآتي:

أ- النسيج الأخلاقي:

يشير الفاروقي في معرض حديثه عن الجامعة المنشودة بقوله: ويجب أن نكرّر دائماً وفي كل مكان وبلا كلل أنّ الجامعة الإسلامية مؤسّسة تختلف عن

---

(١) الفاروقي، **نحو جامعة إسلامية**، مرجع سابق، ص٥٠، ٥١.

(٢) غارودي، **وعود الإسلام**، مرجع سابق، ص٢٢.

(٣) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص١٤.

(٤) العمري، **التراث والمعاصرة**، مرجع سابق، ص١٠٢.

openkan.com

باقي المؤسسات، فهي مؤسّسة غير عادية قائمة على الفضيلة وحدها. وكل حياتها وطاقتها مكرّسة من أجل هذه الفضيلة، وأنّ هدفها هو أن تجعل من الفضيلة طبيعة ثانية لكل الأشخاص المتصلّين بها، إنها تسير على نسق الشرف في كل معاملاتها مع الطلبة وأعضاء هيئة التدريس. كما أنه لا بد وأن يكون لها زي خاص يرتديه الطلبة وأعضاء هيئة التدريس وأعضاء السلك الإداري كافة، على أن يكون هذا الزي أنيقاً مريحاً مسايراً لتعاليم الإسلام، مما يعطي مظهراً خاصاً بالجامعة يلتزم بملاحظته الجميع. ولذلك يعدّ النسيج الأخلاقي الذي يسري في الجامعة أقوى نسيج أخلاقي ممكن وأعلاه منزلة، حيث يسمو بكل نشاط فيها وبكل من حياتها.

ب- العلاقات بين الطلبة وأعضاء هيئة التدريس:

تقوم التربية الإسلامية على مبدأين أساسيين هما: تنمية العقل وتنمية الإرادة. فالتربية الإسلامية هي اكتساب للمعرفة والفضيلة، وبينما يتم اكتساب المعرفة بطريقة واضحة في لقاءات الأساتذة بالطلبة داخل قاعات الدراسة، فإن الفضيلة تكتسب أساساً في لقاءات الأساتذة والطلبة خارج قاعات الدراسة. ولا يعني ذلك تخصّص المكانين فيما يقدمانه، وإنما هناك تداخلات كثيرة فيما يتم بينهما، فسلوك المدرّس داخل قاعة الدرس لا يقتصر على إعطاء المعرفة، بل من المتوقع أيضاً أن يكون قدوة تحتذى في إظهار الاتجاه المثالي للفكر تجاه الحقيقة والمعرفة، وهو ما يتبناه الإسلام. وتظهر الفضيلة الأخلاقية بالقوة نفسها في القدوة التي يعطيها عضو هيئة التدريس في الجامعة، فيجب أن يكون الأسوة الحسنة لتلاميذه، مثلما يكون شاهداً على ما يقومون به، ويستلزم ذلك دخول المدرّسين والطلبة في علاقات ومواقف تمارس فيها الفضائل الأخلاقية. والنتيجة هي أنه يجب أن تكون حياة المدرس مثالاً خالصاً للإخلاص لقضية الجامعة وتحقيق واجباتها الإلزامية.[1]

(١) الفاروقي، **نحو جامعة إسلامية**، مرجع سابق، ص٥٢، ٥٣.

ت- التقويم الأكاديمي:

إنّ التقويم في الجامعة سيقوم على أن الأسبوع سبعة أيام وطوال العام. ولن يكون يوم الجمعة إجازة، ولكنه سيكون يوماً تختلف فيه البرامج عن الأيام الأخرى. وستقسم السنة الأكاديمية إلى ثلاثة فصول دراسية، كل منها يستغرق (١٣) أسبوعاً من اللقاءات الدراسية يتبعها أسبوعان للقراءة، ثم أسبوع واحد للامتحانات النهائية، وهناك أسبوع واحد يفصل بين كل فصل دراسي وآخر، لإعطاء الفرصة لأعضاء هيئة التدريس والطلبة لزيارة أسرهم والإعداد للفصل الذي يليه.

يُنظّم الجدول الدراسي للقاءات داخل قاعات الدرس بين الفجر والظهر، وتترك فترة العصر للقراءة والأنشطة الإضافية، وسيكون هناك ثلاثة لقاءات في اليوم، كل منها تسعون دقيقة طوال ستة أيام في الأسبوع.

ث- تخطيط المنهج الدراسي:

يجب أن تعتمد في تدريسها على تخطيط رصين للمنهج الدراسي لكل مقرّر، لكي تضمن تحصيل الطالب للمعرفة المطلوبة. ويحتوي المنهج الدراسي على كل المواد التي سيتم تدريسها في المقرّر، فيشمل كل القراءات التي يجب على الطالب القيام بها، ويتم تصنيفها على أساس أنها إما "أساسية" أو "إضافية" أو "متطلب من أجل الامتياز". ويجب تعيين لجنة من الدارسين الأكفاء لكل مقرّر تعليمي تكون مهمّتها تخطيط المنهج الدراسي، واضعة في حسبانها المتطلبات الآتية:

- نظرية هذا الفرع من المعرفة مشتملة على مبادئه وطريقة البحث فيه.
- تاريخ هذا الفرع من المعرفة والإنجازات التي تمت فيه في الماضي، ومكانه في تاريخ المعرفة.
- الاهتمامات المركزية لهذا الفرع ومشكلاته وموضوعاته.

- موقف الإسلام بالنسبة للبنود السابق الإشارة إليها كما تم بيانها أو استنباطها من المصادر (القرآن والسنة)، وتراث العلم الإسلامي.
- التحليل الناقد لكل البنود السابقة، والفحص لما يرد من إجابات سواء الإسلامية منها أو الغربية بالنسبة لقابليتها للتطبيق أو قيمة إسهاماتها في مشكلات الإنسانية.

ج- برامج التعليم الإسلامية:

يقترح الفاروقي للتعليم الجامعي الإسلامي ثلاثة برامج يمكن للطالب أن يدرسها، وتتمثل هذه البرامج فيما يلي:

- برنامج درجة "العالمية": وتدوم هذه المرحلة أربع سنوات، ويجب على الطالب أن يفي بثلاثة أنواع من المتطلبات: متطلبات إسلامية، ومتطلبات عامة، ومتطلبات القسم.
- برنامج درجة "الفقاهة": وتدوم هذه المرحلة ثلاث سنوات من الدراسة الجامعية، يدرس الطالب فرع التخصص، ثم دراسة فرع مساند، مع دراسة لغة أجنبية، وينهي هذه المرحلة بإعداد أطروحة.
- برنامج درجة الحكمة: وتدوم هذه المرحلة ثلاث سنوات من الدراسة الجامعية، ويتم توزيعها كالآتي: سنة لدراسة فرع التخصص، وسنة لدراسة فرعين مساندين، مساند أوّل ومساند ثان مرتبطان بموضوع الأطروحة، وسنة مخصّصة لإعداد أطروحة الدكتوراه (الحكمة).[1]

وتجدر الإشارة إلى أنّ المعرفة كانت سبباً في ازدهار وإصلاح حال الأمة، والإسلام منذ ظهوره كان يُعنىَ ببناء كيان الأمة الإسلامية على أساس سليم من المعرفة، التي ترتكز على هدى الوحي وتوجيهه، وعلى قدرة العقل وفاعليته. يستطيع الناظر الموضوعي أن يرى في أساس المواجهة بين المسلمين ومناجزيهم

(١) الفاروقي، **نحو جامعة إسلامية**، مرجع سابق، ص٥٤-٥٥.

وأعدائهم تدهور المعرفة، وضمورها، وانحطاط النموذج المسلم، وانحطاط نوعية ومصادر قدراته الفكرية والتنظيمية والثقافية والحضارية. ويظل النموذج المسلم وإن لم ينقصه عنصر الإخلاص والتضحية إلا أنه تنقصه قاعدة المعرفة والقدرة.[1]

سادساً: تمثّل الفاروقي للحلول التي اقترحها لإصلاح التعليم من خلال مؤسسات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

يبدو أن كتابات الفاروقي حول إصلاح التعليم عموماً والجامعي خصوصاً شكلت النواة الأولى التي انطلقت نحو تأسيس مشروع فكري إصلاحي يستهدف إصلاح حال الأمة من خلال إصلاح نظامها التعليمي. وبعد المناقشات التي دارت بين نخبة من العلماء والمفكرين استقرت على تحديد طبيعة الأزمة التي تعانيها الأمة الإسلامية على أنها أزمة فكرية، وأن العلاج يجب أن يبدأ بهذه الأزمة. من هنا جاءت المبادرة لإنشاء مؤسسة علمية متخصصة، لدراسة هذه القضية ووضع الحلول لها، فتمخض عن ذلك تأسيس "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م. وتلا ذلك بعام واحد انعقاد "ندوة إسلامية المعرفة" في إسلام آباد في باكستان سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، وأثمرت بحوثها ومداولاتها الاتفاق على "خطة العمل" التي حرّرها ونشرها بالإنجليزية الشهيد الدكتور إسماعيل الفاروقي تحت عنوان "أسلمة المعرفة" ونشرت مجلة المسلم المعاصر ترجمتها العربية في عددها الثاني والثلاثين الصادر في سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.[2] وحددت خطة العمل ضورة معالجة عدد من المعضلات منها:

- ازدواجية التعليم التي انعكست على شخصية المسلم، وعقله، وفكره، ونمط حياته، فقد عدّ الفاروقي ازدواجية التعليم أزمة الفكر الإسلامي،

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. "إسلامية المعرفة وإسلامية العلوم السياسية"، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد٣١، رجب١٤٠٢هـ/ماي١٩٨٢م، ص٢١.

(٢) الرفاعي، تقديم كتاب إسماعيل الفاروقي: **إسلامية المعرفة**، مرجع سابق، ص١٢، ١٣.

وله وثيقتان مهمتان في هذا الصدد. ناقش في الأولى مفهوم التوحيد وتطبيقاته في الفكر والحياة، كما ناقش مكونات المنظور التوحيدي ومفهومه من وجهة نظر إسلامية، وشرح في الأخرى المبادئ العامة لمشروع إسلامية المعرفة، وخطة عمل مؤسسته في تحقيقها. على أساس أن إسلامية المعرفة شرط ضروري لازم، لتجاوز أزمة التعليم والأزمة الفكرية عامة.(١)

- خطر العلمانية وحركة التغريب على الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي، فالتعليم في البلاد الإسلامية وقع في آفة التقليد والمحاكاة، وجلّ أنظمة التعليم في هذه البلاد وفلسفاتها صارت غربية أجنبية، غريبة عن ضمير الأمة وغاياتها الحضارية، لا تأخذ بالحسبان الطبيعة والسمات الشخصية والخاصة للحضارة الإسلامية ومنطلقاتها وقيمها.(٢) وأهم ما نجحت عملية التغريب به في بعض البلاد الإسلامية إلى حد ما، هو نزع الروح الإسلامية لدى الطبقة المتعلمة من طبقات المجتمع. والنتيجة هي فشل النظام الغربي في تحقيق أي تقدم أو تفوق في البلاد الإسلامية، بل أدى الصراع بين النظامين الإسلامي والغربي إلى مزيد من إضعاف الأمة، وإضعاف بعضهما بعضا.(٣)

- نمطية المنهجية الإسلامية وقصورها عن تقديم البديل المعرفي الإسلامي في المجالات الاجتماعية.

ولهذا نبه الفاروقي إلى ضرورة وجود مؤسسة تتولّى إصلاح التعليم في العالم الإسلامي؛ إذ قال: "ومما يؤسف له بشدة أن العالم الإسلامي لا يزال

---

(١) إبراهيم، أبو بكر محمد. **التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٧م، ص٣٥.

(٢) أبو سليمان، **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، مرجع سابق، ص٦٨-٦٩.

(٣) الفاروقي، **إسلامية المعرفة المبادئ العامة -خطة العمل- الإنجازات**، مرجع سابق، ص٧٤-٧٥.

يفتقر إلى مركز يتم فيه مثل هذا المستوى الرفيع من التخطيط والتفكير، وما نحتاج إليه في الواقع هو جامعة تكون بمثابة مركز رئيسي للفكر الإسلامي، تتم فيه إسلامية فروع المعرفة. ومن ثم يجري اختيار النتائج في قاعات الدروس والحلقات على مستوى مناهج الدراسة الجامعية والدراسات العليا."[1] من هنا جاءت فكرة إنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي بفرجينيا في واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م لهذا الغرض. وهو مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة، أنشئت في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري. ويرمي المعهد إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكليات والمقاصد، والغايات الإسلامية العامة.
- استعادة الهوية الفكرية، والثقافية، والحضارية للأمة الإسلامية من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.
- إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية، ودورها في توجيه مسار الحضارة الإنسانية، وترشيدها، وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

وقد جرى تطبيق مشروع إسلامية المعرفة في الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية في دولة ماليزيا. وقد جاءت الفكرة استجابة لمقررات مؤتمر مكة ١٩٧٧م؛ إذ ناقش رئيس الوزراء الماليزي الفكرة في اجتماعه بعدد من كبار التربويين،"والغاية التي أنشئت من أجلها الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، والفلسفة التي تأسست عليها، والتطورات التي شهدتها منذ تأسيسها وإلى الوقت الحاضر تتوافق إلى حد بعيد مع توجهات إسلامية المعرفة وتكاملها، والرؤية

(١) المرجع السابق، ص٦٨.

الإسلامية لمفهوم الجامعة.[1] والأمر نفسه في باكستان التي أنشأت الجامعة الإسلامية بإسلام آباد في نوفمبر١٩٨٠م، وقد طورت هذه الجامعة، لتصبح جامعة إسلامية عالمية في عام ١٩٨٥م. كما عمل في هاتين الجامعتين بعض العلماء والمفكرين، ومنهم إسماعيل راجي الفاروقي، وعبد الحميد أحمد أبو سليمان وغيرهم.

ولعل خير نموذج يعكس بحق التوجّه الذي خطه إسماعيل الفاروقي في إصلاح التعليم هو ما قام به زميله "عبد الحميد أبو سليمان" عندما شرع في إدارة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ابتداءً من عام ١٩٨٨م. فقد شرع مباشرة في التخطيط لتنفيذ خطة تتصدى للتشوّه المعرفي والمنهجي، الذي ظل يعدّه في معظم كتاباته المسؤول الأول عن شل قدرة المسلمين على الإصلاح والبناء. فقد أنشأت الجامعة كلية معارف الوحي الإسلامي، والعلوم الإنسانية عام ١٩٩٠م لهذا الغرض. يقول عبد الحميد أبو سليمان: "كانت المهمة الأولى في خطة عمل إدارة الجامعة التصدي للتشوّه المعرفي والمنهجي الذي أصاب فكر الأمة، وشلّ قدرتها على الإصلاح والبناء، وإيجاد الكوادر المثقفة العاملة البديلة التي يتسم فكرها بوحدة المعرفة الإسلامية وشمولية المنهج، وكان أهم ميادين هذا المنهج العلمي الأكاديمي البديل هو ميدان العلوم الإسلامية والإنسانية."[2]

وقد تبنّت كلية معارف الوحي الإسلامي، والعلوم الإنسانية فلسفة جديدة في تصميم المناهج الجامعية قوامها إسلامية المعرفة، وإصلاح المناهج الفكرية، وتكاملها بمنظور التوحيد الإسلامي.[3] يقول أبو سليمان: "وقد جاءت الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا بداية مهمة، وتجربة رائدة في هذا المجال، بما أخذت

(١) إبراهيم، **التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية**، مرجع سابق، ص١٧٧.

(٢) أبو سليمان، **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، مرجع سابق، ص٨٣.

(٣) إبراهيم، **التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية**، مرجع سابق، ص٢٤٧-٢٤٨.

به من إصلاحات في المنهج، وخطة إعداد كوادر الأمة، ليكونوا طليعة الإصلاح والتغيير الاجتماعي في الأمة."[1]

وقد تبنّى المعهد العالمي للفكر الإسلامي الرؤية نفسها تقريبا؛ إذ شرع في تطبيق فكرة إسلامية المعرفة، فـ"إسلامية المعرفة لدى مؤسسي المعهد العالمي للفكر الإسلامي هي منطلق خطة، لإعادة صياغة فكر الأمة على أساس ثوابت الإسلام ومنطلقاته الإنسانية العالمية الحضارية، المبنية على أساس التوحيد والاستخلاف، وتهدف خطة إسلامية المعرفة إلى استعادة الرؤية الكلية الإيجابية التي تمثل الأساس والقاعدة والمنطلق، وتعمل على إصلاح المنهج المعرفي، حتى يتم بناؤه على مفهوم شمولي تحليلي منضبط، وعلى وحدة الهداية الإلهية والعلوم الإنسانية التي لا تنفصم، لتشكيل واقع سعي حياة الإنسان في هذه الأرض."[2]

إنّ مهمّة المعهد العالمي للفكر الإسلامي تكمن أولاً في مخاطبة المثقّفين، والمفكّرين، والمربّين، وصنّاع العقول من الأساتذة الجامعيين، لتوعيتهم بطبيعة الأزمة، وبوجوه الإصلاح التربوي المطلوب، وتجلية الرؤية أمامهم، ليحملوا بدورهم مسؤولياتهم في إصلاح الثقافة، وتنميتها، وإصلاح مناهج التربية وترشيدها، وتحريك كوامن الطاقة في كيان الأمة، حتى تُرَشّد مسيرتها.

وقد جسّد "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" هذه الرؤية من خلال مدِّ يده إلى الصفوة الفكرية في مختلف أصقاع العالم؛ إذ وفّر للعلماء والمفكرين منابر الحوار، وتبلورت جهودهم وخططهم على شكل مراكز ومؤسسات، ومؤتمرات وندوات، ومطبوعات ودوريات، وبحوث وأطروحات أكاديمية. فقد عقد المعهد العالمي للفكر الإسلامي عدداً من المؤتمرات والندوات العلمية والفكرية المتخصصة.[3]

---

(١) أبو سليمان، **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، مرجع سابق، ص٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص٧٦-٧٧.

(٣) المرجع السابق، ص٧٧-٧٨.

Openkan.com

كما عقد المعهد عدداً من المؤتمرات العالمية، وعدداً من الندوات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. كما يتطلّع المعهد إلى وعي القادة والمفكرين والمؤسّسات العلمية، بحيث يدفعون بإمكاناتهم الوفيرة جهود التوعية حتى تتّضح للأمة، وتتمثّل الجهود العلمية والفكرية كافة في مسيرة مبدعة متجددة. وهو يعمل أيضا على دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي، ونشر النتاج العلمي المتميز. وكذا توجيه الدراسات العلمية والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والثقافة، التي تصبّ في الإصلاح التربوي والعلمي في العالم الإسلامي.

والمتتبّع لنشاطات المعهد العالمي للفكر الإسلامي يدرك بوضوح مدى الجهود الجبّارة، التي بذلها ولا يزال يبذلها في سبيل تحقيق الرؤية الكلية لإسلامية المعرفة، وإصلاح الفكر والتعليم والتربية، وإعداد الكوادر القادرة على تحمل مسؤولية الإصلاح. وقد كان الفاروقي يستبشر خيراً في الخطة التي وضعها المعهد، وفي ذلك يقول: "إن خطة المعهد واسعة طيّبة الثّمار، متعدّدة الجوانب، بفضل الله، ثم بفضل وعي العلماء، والمفكرين، والمثقفين، وتعاونهم مع المعهد لإنجازها، تفهماً منهم لأهمية قضية إسلامية المعرفة، وأولوياتها في إرساء القواعد والمنطلقات."[1]

خاتمة:

خلصنا في نهاية هذه الدراسة التي دارت حول "مسؤولية الجامعة والجامعيين في إصلاح التعليم في مقاربات إسماعيل الفاروقي" إلى أنَّ إصلاح التعليم بفلسفته، ومناهجه، وأهدافه يعد أحد أهم أركان الإصلاح التي يقوم عليها بناء الأمة، وأن هذا الإصلاح ينبني أساساً على رؤية كلية معرفية تشكّل إطاراً نظرياً عاماً، تكون فيه المناهج التعليمية متوافقة مع التصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة، وذلك بهدف بناء شخصية متوازنة روحياً، وفكرياً، وسلوكياً، حتى تكون فلسفة إصلاح التعليم متسقة مع مقاصد الشريعة وكليات الدين.

(١) الفاروقي، **إسلامية المعرفة المبادئ العامة-خطة العمل- الإنجازات**، مرجع سابق، ص١٥٥.

لقد أجاب الفاروقي عن سؤال مهم ظل مطروحاً على المفكرين والمصلحين وهو سؤال: أين الخلل؟ وسؤال من أين نبدأ؟ وإلى أين نريد أن نصل بإصلاح التعليم؟ وما هي الآليات التي تمكننا من تحقيق هدفنا في الإصلاح؟ وعلى من تقع مسؤولية الإصلاح في العالم الإسلامي؟ وفي إجابته عن هذه الأسئلة لفت الفاروقي نظرنا إلى دور النخبة المثقفة في عملية التغيير والبناء. ووضع يده على فلسفة الإصلاح الفكري والعقدي، من خلال إصلاح التعليم عموماً والتعليم الجامعي على وجه الخصوص، وذلك من خلال توصيف وتشخيص الواقع التعليمي في العالم الإسلامي، وبيان انعكاساته الفكرية والعقدية، والحضارية على المجتمع والعالم. وإنّ مؤسّسات التعليم العالي هي التي تولّد الإبداع والابتكار وتعمل على إيقاظ وعي المسلم، ومن ثم تقويم شخصيته وإصلاح سلوكه وواقعه.

وقد كان الفاروقي جريئاً في إقراره بأزمة العقل المسلم، التي أفقدته القدرة على الابتكار، والإبداع، والتوليد للمعرفة، وجعلته قاعداً عن الإصلاح والتغيير. من هنا جاءت دعوته إلى أنَّ عملية النهوض الحضاري بالأمة تأتي من إصلاح منظومة المعرفة، انطلاقاً من إصلاح منظومة التعليم والقضاء على ازدواجية التعليم الديني والتعليم العام؛ وذلك بدمج نظامي التعليم الديني والعام، وتكاملهما في نظام تعليمي موحد، بالإضافة إلى غرس الرؤية الإسلامية في المنهج، عن طريق فرض دراسة الحضارة الإسلامية على كل الطلاب بغض النظر عن مجالات تخصصاتهم، وعن طريق إسلامية المعرفة الحديثة.

إنّ الدّعوة إلى إصلاح التعليم إنما هي محاولة لاستعادة منهجية التفكير الإسلامي السليم التي وجدت في تاريخ الأمة، والتي حقّقت الشهود الحضاري، وغيرّت حركة التاريخ، المنهجية التي تجاوزت وهم تعارض الثنائيات التي حصلت في التاريخ الإسلامي، وأدّت إلى الأزمة الحضارية: تعارض الوحي مع العقل، وتعارض الفكر مع العمل، والازدواجية الثقافية والدينية، والفصام بين المثال والواقع.

إصلاح التعليم عموماً والجامعي على وجه الخصوص إنّما يصبّ في إعادة بناء المفهوم الشامل للتربية وربطها بالتعليم، بعدما وقع الفصل بينهما في المنظومة المعرفية والتعليمية الغربية. فالتربية المنشودة هي التي تسعى إلى بناء الإنسان والشخصية المعاصرة، ذات الملامح المستوحاة من النموذج الإسلامي، والمرجعية القدوة المتمثّلة بشخص النّبي عليه الصلاة والسلام وسنته، فكان الإصلاح الذي باشره عليه الصلاة والسلام، يستهدف بناء الإنسان صاحب الرؤية الكونية الحضارية الواضحة، والهمّة العالية، والرّسالية الحضارية. ولن يقوى على أداء هذه الرسالة في زماننا هذا إلا الجامعة والجامعيون، فهم المسؤولون تاريخياً وواقعياً على إحداث النقلة الحضارية للأمة، والخطوة الأولى على طريق تحقيق الذات وبنائها، واستعادة هويتها وأصولها، ورسم ملامح مستقبلها.

لقد كان لرؤية الفاروقي في إصلاح التعليم الجامعي موقع مهم في مقاربات الإصلاح في العالم الاسلامي بعد وفاته، خاصة عند رجالات المعهد العالمي للفكر الاسلامي الذين عملوا على تصحيح المفاهيم، وزادوا من عقد المؤتمرات العلمية حول الإصلاح التعليمي العام، والجامعي منه بوجه أخص. كما شرعوا مباشرة في التخطيط، لتنفيذ الخطة التي اقترحها الفاروقي للإصلاح الفكري والتعليمي، والتصدى للتشوّه المعرفي والمنهجي، الذي شل قدرة المسلمين على الإصلاح والبناء. وكان من نتائج ذلك التخطيط تطوير الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. التي عملت إدارة الجامعة فيها على إيجاد الكوادر المثقفة العاملة البديلة التي يتسم فكرها بوحدة المعرفة الإسلامية وشمولية المنهج، ووضوح الرؤية والمقصد. كما سعت الجامعة إلى ربط الطلاب بحقائق الوحي، وبثت فيهم روح الاسلام بوصفه رؤية كونية حضارية تجمع بين تراث العلم البشري والمقدّس، وربطت علومهم ومعارفهم بمشكلات الأمة، وبيَّنت صلة الاسلام الوثيقة بالوضع الحالي كونه هو القادر على إبراز وقائع الحاضر ومعالجتها وتجاوز محنته.

وتحقيقاً للمشروع الإصلاحي التعليمي واستكمالا له، فإننا نرى أنه من المناسب مواصلة تنفيذ المشروع في الواقع، وذلك من خلال:

- العمل على إنشاء الجامعة الإسلامية في أكثر من بلد، واستقطاب العلماء والباحثين والأساتذة والمعلّمين المستوعبين للرؤية الكلية الحضارية الرسالية. وأن يكون نظام الجامعة التعليمي نظاماً واحداً ينبع من الروح الإسلامية، ويعمل بوصفه وحدة متكاملة مع برنامج الإسلام ونظامه المعرفي.
- أن تعمل الجامعة من خلال علمائها ومدرّسيها على تصميم المناهج، والمقررات، والبرامج الجامعية المبنية على رؤية الإسلام وغاياته، مع الاستعانة بمشروع إسلامية المعرفة بوصفه رؤية ومنهجاً للتخطيط، والتطوير العلمي والتعليمي.
- أن تعمل الجامعة على إصلاح المناهج الفكرية، وتكاملها بمنظور التوحيد الإسلامي وبثه في الوعي الطلابي، وإعداد كوادر الأمة من طلاب، وباحثين، ومدرّبين، ومعلّمين داخل المجتمع والجامعة إعدادا علمياً رسالياً حضارياً، ليكونوا طليعة الإصلاح والتغيير الاجتماعي في الأمة.
- مواصلة عقد المؤتمرات في الجامعات حول إصلاح التعليم في العالم الإسلامي، والتركيز على قضية تصحيح المفاهيم، وتطوير طرق التدريس وإعداد المدرّسين المؤهّلين لأداء دورهم التعليمي والتوجيهي والإصلاحي. وتدريب المسلمين على تحويل أنفسهم والبشرية إلى أدوات للإرادة الإلهية المقدّسة من أجل تحقيق أوفى لهدف الإنسان المقدّس في الواقع والتاريخ.
- إصلاح الرؤية الإسلامية الحضارية، وسلامة المنهج الفكري، واستعادة صورتها القرآنية الكونية، والعمل على نشرها في الأوساط العلمية الطلابية والبحثية، وتمكين الدارسين والمبدعين من توضيح روح الإسلام وحركته

والتعبير عنها، وتعليمهم وتدريبهم وتأهيلهم في المجتمع، لأداء دورهم الرسالي في تربية أبنائه التربية السليمة التي تحدث التغيير والإصلاح، وإعادة تشكيل الرؤية الكونية الحضارية لأجيال المستقبل.

obeikan.com